

القسم الرابع  
القيم التخيلية والحساسية

## الفصل الأول

### زمن بلا شعر

نستطيع أن نتتبع الحركة العقلية حتى ظهور الانسيكلوبيديا (١) ، ، وحتى « المقال عن الأخلاق » (٢) ، وحتى إعلان حقوق الانسان (٣) ، وحتى وقتنا هذا .

لكن من أين يأتي ريشاردسون (٤) ؟ من أين يأتي جان جاك روسو ؟ من أين تأتي « العاصفة والانفعال » (٥) *Sturm und Drang* ؟ لا بد من أنه كان هناك نبع خفي قد انبثق منه هذا السيل العاطفي . لقد ظهرت

(١) تأليف واسع استغله فلاسفة القرن الثامن عشر ، وكان يتولاه دالامبير وديدرو Diderot . [الترجمان]

(٢) *Essai sur les mœurs* مؤلف تاريخي وفلسفي لفولتير ، ١٧٥٦ . الفكرة الأساسية فيه : أنه لا يوجد شعب مختار ولا جنس متفوق ، بل المجتمع البشري بأجمعه يشارك في تقدم الانسان . وأن الأنسانية كونت نفسها ، تحت ضغط الاحتياج والظروف التي خلقت القوانين والأخلاق والعلوم . (أنظر فولتير ، بقلم جوستاف لانسون ، هاشيت ١٩٢٧) . [الترجمان]

(٣) المبادئ التي أعلنتها الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩ : المساواة بين المواطنين ، سيادة الشعب ، واحترام الحريات ... [الترجمان]

(٤) ريشاردسون : خالق الرومانتيكيه الانجليزية الحديثة ومن مؤلفاته كلاريس هارلو ، وبامبلا . [الترجمان]

(٥) *Sturm und Drang* ، أو العاصفة والانفعال : أعطى هذا الاسم لمدرسة أدبية أثرت تأثيرا عميقا على الأدب الألماني بين (١٧٧٠ - ١٧٩٠) . وهذه المدرسة تدين باسمها لمسرحية ألفها Klinger عام ١٧٧٦ بعنوان « عاصفة وانفعال » قوامها حركة عكسية ضد العقلية ، مطالباً بحقوق الشعور ضد حقوق العقل ، وبحقوق الابداع ضد الاصطلاح . ويظهر في إنتاج هذه المدرسة تأثير «ستيرن» ويونج وجولد سميث و«أسيان» والكتاب المقدس . ولكن الحركة على وجه عام يسودها تأثير «جان جاك روسو» . وأهم من يمثل هذه المدرسة فاجنر ، لنتز ، كلينجر وفردريك مولر . [الترجمان]

حتى الآن بمظهر من لا يرى على المسرح العالمى إلا العقلين : والواقع أن هذا هو الوقت الذى تقدموا فيه إلى المنظر الأسمى ، حيث شغلوا - فى صخب وإلحاح - أهم الأدوار الكبرى . لكن ليس صحيحاً أنهم كانوا وحدهم متفردين ، وقد حان الوقت لتلقت إلى الآخرين . إلا أنه ينبغى أن نعترف أولاً أن البحث شاق هنا ، وأن المظاهر تخدعنا ، وأن أولى النتائج التى نصل إليها سلبية .

\*\*\*

ونحن فى الواقع نرغب فى توجيه بحثنا إلى ناحية الشعر . فلا بد من أن القيم التخيلية والحساسة التى نأمل العثور عليها ، تختفى فيه . إلا أن هذا العصر كان عصر النثر . وهل هناك نثر أغنى وأقوى ، وأحق بالاعجاب من نثر سويفت ؟ وأرق من نثر سانت أفريموند ؟ وأبلغ من نثر فونتنل ؟ وأحد من أسلوب بايل ؟ إن ذلك المنطيق ، ذلك الرجل الذى لم يجب إلا الاتهام والتمييز *Criminations et discriminations* كما يقول لبتز ، - لم نحمد أبداً جذوته . إنه يغضب ، وتزداد فورته ، ولا تزال تشتعل صفحاته بالنار التى كانت تلهبه . فاذا لم تكفه ألفاظ اللسان الجارى ، خلق غيرها . يحصر تعبيره الأفكار ويربطها حتى يجعلها تفصح عن كل ما تتضمنه . ولا أحد يشبهه ، وإنك لتتعرف أسلوبه لأول نظرة ، حتى ولو لم يوقعه . لقد أعطى الجميع ، - انجليزا كانوا أو فرنسيين - للنثر قوة مؤثرة جديدة ، بتحميله بالأفكار ، وبجعله سناضلا ، متهجيا . ولقد صبوا فى بحوثهم ، وفى رسائلهم ، وفى أحاديثهم عن الأحياء والأسوات (١) وفى رحلاتهم الخيالية ، كل الأخلاق ، وكل الدين ، وكل الفلسفة . ولم يكونوا شعراء . كانت آذانهم قد سدت عن نضرة الكلمات ورقتها ، وكانت نفوسهم قد فقدت معنى الأسرار . ولقد أغرقوا عالم الواقع الملموس فى نور لا يحمى . وكانوا يبعثون الانتظام والوضوح حتى فى مكاشفاتهم القلبية .

(١) مثل كتاب فينيلون « أحاديث الأسوات » الذى كتبه فى عام ١٧١٢ لتربية دوق بورجونى . [ المترجمان ]

وإذا كان الشعر دعاء ، فإنهم لم يعرفوا الدعاء ؛ وإذا كان محاولة للوصول إلى ما يبجل عن الوصف ، فقد كانوا ينكرون ما يبجل عن الوصف ؛ وإذا كان تردداً بين الموسيقى والمعنى ، فإنهم لم يعرفوا التردد . فهم لا يريدون إلا البرهان والقضايا ، وإذا نظموا شعراً ، فإنما يفعلون ذلك ليضمنوه فكرهم الهندسي (١) . هكذا مات الشعر ، أو على الأقل بدا ميتاً . لقد نفذ إليه الذكاء ، بأليته وجفافه ، ففقد سبب وجوده . في ذلك الوقت ، كان هناك جمع غفير ممن ينظمون الشعر : ولكن بعد موت لافونتين ، لم يعد في فرنسا شعراء . ولما ظهرت المدرسة الكلاسيكية الإنجليزية في ازدهارها الرائع ، كان أكثر ماتفتقده الشعراء المحيدون .

وبعد ، فقد كان للعبقرية المبدعة عدو آخر . لقد بولغ في الإعجاب بما قدمه الجيل السابق من الروائع الأدبية في سخاء . ازداد أشياح كورنيل وراسين وموليير عما يجب ، وظن البعض أن أولئك الأعلام جديرون دائماً بالمحاكاة والتقليد . واعتقدوا أنهم استعملوا صينغاً خاصة وأسراراً فنية ، وأنه يكفي أن يتوصلوا إلى هذه الصينغ وتلك الأسرار لكي ينتجوا مثلهم روائع خالدة . إن جبايرة العقل الذين كانوا يفخرون بعدم احترامهم لشيء من الأشياء ، وكراهيتهم للاعتقادات الباطلة ، قد أصبحوا في ميدان الأدب قطيعاً طيغماً ؛ يسجدون أمام الأوثان ، ولا يجترئون على لمس « قانون التفریق بين الأنواع » أو قانون « الوحدات الثلاث » . يرفضون الاعتقاد في الملائكة والشياطين ، ولكنهم يؤمنون ببندار وأناكريون وتيوكريت (٢) . بل كانوا يعتقدون في أرسطو : لا أرسطو الفيلسوف ، بل أرسطو مؤلف علم البلاغة ، فهو بصفته هذه نصف إله .

(١) لياجون دي سان ديدييه : الرحلة إلى بارناس ١٧١٦ ، ص ٢٥٨ « لقد دوت فجأة ضجة هائلة ، فان مائة شاعر صاحوا في آن واحد راجين أبوللو أن يستمع إلى أشعارهم . فقال أحدهم : أيها الإله العظيم ، لقد نظمت قصيدة عن حركة الأرض ، وقال غيره : لقد نظمت قصيدة عن الجبر ... » - وفيما يتعلق بالجلترة انظر إلى مؤلف جورج أسكولي ، « بريطانيا العظمى في نظر الرأي الفرنسي في القرن السابع عشر ، ١٩٣٠ . الجزء الأول ص ١١٩ .

(٢) شعراء اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد . [ المترجمان ]

كانت اليونان في نظر راسين حقيقة شعرية مؤثرة . ولو لم تكن فيدرا ( ١ )  
ابنة الآلهة ، لما تألمت مثلما تألمت :

*J'ai pour ayeul le Père et le Maître des Dieux.  
Le Ciel, tout l'Univers est plein de mes Ayeux.  
Où me cacher? Fuyons dans la Nuit infernale.  
Mais que dis-je? Mon père y tient l'urne fatale.  
Le Sort, dit-on, l'a mise en ses sévères mains.  
Minos juge aux Enfers tous les pâles humains.  
Ah! combien frémissa son ombre épouvantée,  
Lorsqu'il verra sa fille à ses yeux présentée,  
Contrainte d'avouer mille forfaits divers  
Et des crimes peut-être inconnus aux Enfers?  
Que diras-tu, mon Père, à ce spectacle horrible?... (٢)*

ولكن اليونان لم تعد اليونان ، فقد آذاها هذا النجاح ، ولم تفهم على حقيقتها ؛  
ففقدت بساطتها الطبيعية ، وشبابها وحياتها ، وأصبحت أشبه بالمدافن العاسرة  
بالتماثيل ؛ ولم تعد روائعها الابداعية سوى مجموعة قوافين للنجاح المصطنع .  
لقد درسها الناس على ضوء الحاضر ، وبدلاً من تفهم أوليس وأجاكس ( ٣ ) ،  
قالوا إن جهلهم سرده إلى لبسهما الشعر المستعار وإلى حملهما السيف في ذلك الوقت .

( ١ ) فيدرا : في الميثولوجيا اليونانية ابنة مينوس إله الجحيم وابن زيوس رب الأرباب ،  
وقرينة « تيزيه » اشتهرت بحبها لابنها هيبوليت سفاحا ، ولما صدها اتهمته لدى زوجها ثم  
انتحرت فدما . وألف راسين مسرحية عن هذه المأساة . [ المترجمان ]

( ٢ ) جدى هو سيد الآلهة ، رب الأرباب .  
إن أجدادى يملئون الكون والسماء .  
أين أختي؟ هيا نهرب في الليل الخبيث .  
لكن ماذا أقول؟ إن أبي يحتفظ فيه بالاناء المشئوم  
يقال إن إله القدر قد وضعه في يديه الصارمتين .  
إن مينوس يحكم في الجحيم على البشر المسكين .  
آه !... كم سيرتعد دهشة حين تتقدم ابنته إليه ،  
مجبرة على الاعتراف بمائة فاحشة ، وجرائم ربما لا يعرفها الجحيم !  
يا أبتاه !... ترى ماذا تقول في هذا المشهد الفظيع ؟

( ٣ ) Ulysse : والد تيلياك وزوج بنليوب ، بطل حرب طرواده . ورجوع أوليس إلى  
وطنه هو موضوع الأوديسا لهوميروس . وأجاكس هو خصم أوليس ، نشب بينهما قتال  
فلاستيلاء على سلاح آشيل — قاتل هيكتور في حرب طروادة وأحد أبطال الاليادة ، الذي  
لتل بارنس برسية سهم — فانتصر عليه أوليس ، فاغتم وجن . [ المترجمان ]

عندما شرع العالم في تمجيد هوميروس في عام ١٧١٥ ، وأراد أنصاف القدماء الانتقام من المحدثين ، ونشر بوب ترجمته للالياذة ، التي ترجمت مقدستها إلى الفرنسية والألمانية ، ترى ماذا كان رأى المعاصرين في القصيدة اليونانية ؟ قال بوب إن هوميروس يفوق الآخرين بفضل الابتداع ، علامة العبقرية ، لأنه يمد الفن بالثروة التي عليه أن ينظمها . لقد استطاع هوميروس بفضل مقدرته هذه ، أن يتخيل تلك الأساطير التي أسماها أرسطو روح شعر الملاحم ، والتي تنقسم ثلاثة أقسام ، الأولان هما القصص المجازية والمحتملة - التي تبيح للشاعر التعبير عن أسرار العلم والحكمة - ثم القصص العجيبة المحيرة التي تتضمن ما يفوق الطبيعة ، وآلية الآلهة : « يتخيل إلى أن هوميروس هو أول من جعل من الآلهة نظاما آليا للشعر ، مما أضفى على الشعر هذه الرفعة والأهمية . . . » بيد أن هذا الابتداع ، وإن كان مفيداً في الخطابة والوصف والتشبيه ، في التصوير والشعر والأسلوب ، إلا أنه لا يخلو من بعض العيوب ! فأعاجيب هوميروس لم تعد معقولة ، واستعاراته ملؤها المغالاة ، وتكراره متعب ممل . . .

ولما قرأت مدام داسييه (١) هذا الكلام ، ثارت وقالت : « ماذا يعنى بوب هذا ؟ ذلك الانجليزى الذى يترجم هوميروس وهو لا يفهمه ؟ إنه لا يرى فى الالياذة إلا كتلة مهوشة من جمال لا انتظام فيه ولا انسجام ، حقلا ليس فيه سوى بذور فجة ، لا نضج فيها ولا كمال ، وإنتاجا حافلا بالغث الذى لا فائدة فيه ، يجب حذفه لأنه يخلق ما يستحق الاحتفاظ به . إن أعداء هوميروس لم يوجهوا إليه أبدا إهانة أشد ولا ظلما أفدح . ما أبعد الالياذة عن أن تكون حقلا بائراً ، بل إنها فى الحق بستان فيه أحسن انتظام وأكمل انسجام رآه الانسان . إن « لينوتر » أعظم مهندسى البساتين فى الدنيا ، لم يحقق فى بساتينه انسجاما أكمل مما حققه هوميروس فى أشعاره . . . »

عند هذا الحد انتهى الانتقال ، واستقرت الأمور فى مكانها : أصبحت إتيالك (٢) فرسايل .

(١) قرينة عالم مشهور قامت بترجمة الالياذة والأوديسا . [الترجمان]

(٢) إتيالك : إحدى جزر الأيونيون ، موطن أوليس عندما اشترك فى حصار طروادة . [الترجمان]



لشد ما أساء الناس إلى الشعر ! لم يعودوا يدركون معناه ، ولم يعد نفثا إلهيا يذكي القلوب . لقد صغروا من شأنه حتى لم يعد إلا صورة من صور عدوه ، فن الخطابة . فبدلاً من البحث في أعماق النفس ، اتجه — بمجهود مخالف لطبيعته — نحو خارجها ، نحو الاثبات والتحليل . كان الخيال يعد بمقدرة تافهة ، ولم تعد صورته إلا بهرجا كاذبا . وأصبح الشعر مملاً ثقيلًا ، ولم يعد إلا صعوبات سدلة : هنا كان فضله كله . وكما قال فالانكتور في رده على خطاب السيد دي فليرى في الأكاديمية الفرنسية في عام ١٧١٧ : إن عرائس الشعر لم يعدن يسكن جبل بارناس ، لم يعدن بعد آلهة ، لم يعدن سوى وسائل شتى يتوسل بها العقل للتوصل إلى أدسغة الناس .

إذا أردنا أن نعرف إلى أي حد من الضلال وصل الناس إذ ذاك ، فينبغي أن نطلع على ما كتبه فونتنل عن أشعار فرجيل ، وما كتبه « هودار دي لامت » عن القصيدة . إلا أن هذا الأخير كان أكثر تمشياً مع المنطق ، فقد واصل جرأته حتى وصل إلى نتائج مبادئه : الشعر مضايقة ، فلنكتب بالنثر . إن النثر قادر على التعبير عن كل ما يقوله الشعر ، فهو أدق وأوضح وأسرع ؛ لا يدفع بالذهن إلى العذاب ، بالقوافي والأوزان ؛ فلنقدم للناس قصيداً غير منظوم . . . وهو لم يكن يسير في طريق ابتداء الشعر المنثور ، ولم يدرك أن الإلهام له الحق دائماً في اختيار الشكل كيفما يشاء : بل على النقيض كان ينكر الانسجام بكل فيخار .

والحق أن البلاغة ، على طول تهديدها للشعر ، لم تحرز يوماً انتصاراً أسمى مما نالته يوم كتب هودار دي لامت قصيدة سماها « البلاغة الحرة » : العفاء على القافية والوزن !

« يا قافية ، أيتها القيود الغريبة الظالمة ، أتكون أفكارى دائماً عبيداً لك ؟ حتماً تتحكمين فيها مغتصبة حقوق العقل ؟ فور ما تأمرين بالتزام العبد والوزن ، يجب التضحية بالصحة والدقة والوضوح . وإذا أنا أصررت على الاحتفاظ بها بالرغم منك ، فبأي عذاب تنتقمين مني لقاومتى لك ؟ عليك وحدك ،

أيتها البلاغة الحرة المستقلة ، عليك وحدك أن تخلصيني من عبودية سهينة للعقل كل الهوان . »

هودار دي لاسوت ، الرجل الذي لخص « الالياذة » في اثنتي عشرة أغنية ، ثم نظم قصيدة يتمثل فيها « هوبيروس » يهنئه على عمله القيم ؛ الرجل الذي كتب أشعار راسين مشهورة ، وسر بعمله هذا وافتخر . . . لقد أمل أصدقائه وأمثاله أن العالم بأجمعه سيدرك يوماً أنه لا حساب إلا لعرض الوقائع ، ويومئذ سوف يدع الناس الأشباح ولا يعبرون عن غير الحقيقة ، ولن يتقلوا كاهل اللسان سرخاة للأذن ، وسوف يصبح الشعراء فلاسفة : وهذا خير سبيل للإفادة منهم (١) . « كلما سار العقل في طريق الكمال ، فضل الناس التمييز على الخيال ، وبالتالي قل إعجابهم بالشعراء . يقال إن أوائل المؤلفين كانوا شعراء . حسناً ، إني أصدق هذا ، فما كان في مقدورهم أن يكونوا غير ذلك . أما الآخرون فسيكونون فلاسفة (٢) . »

وإلى أن يحين ذلك اليوم البعيد ، ينبغي التحرز من طائفة عنيدة ، مخادعة، لا فائدة لها . الشاعر — حسب قول جان لي كليير — رجل يخترع ، جزئياً أو كلياً ، الموضوع الذي يتناوله ، ويرتب أفكاره طبقاً لنظام خاص يجتذب القارئ ويسترعى انتباهه ، ويستعمل ألفاظاً تختلف عن الألفاظ الشائعة . « عندما نطلع على قصيدة ، فلا بد من أن نقول إن هذا عمل كذاب ، يريد أن يصف لنا أوهاماً أو حقائق مشوهة حتى إننا لا نستطيع أن نفرق بين الصحيح ، والباطل . ينبغي أن نعي أن الألفاظ الفخمة التي يستعملها لا غرض منها إلا أن يحير بها عقلنا ، وأن الوزن الذي يستعمله لا غرض منه إلا أن يتملق آذاننا ، لكي يدفعنا إلى الإعجاب بعمله ، والاكبار من شأنه . قد تنفع هذه الأفكار كترياق في مطالعات من هذا النوع ، إذ تفيد أولئك الذين أوتوا ذهنًا قويًا ، ولكنها لا تنفع لها إلا في تهويش أصحاب الأذهان الضعيفة ، إذا بالغوا في الإعجاب بها (٣) . » ما منشأ هذا العداء من أحد أعلام العقلين؟ إنه هذا الاعتقاد الراسخ : الشعر هو الباطل .

(١) فوننتل : عن الشعر ، مصنفات مختلفة ، الجزء الثامن ، ١٧٥١ .

(٢) الأب تروبلية ، مقال عن موضوعات شتى في الأدب والأخلاق ١٧٣٥ .

(٣) جان لي كليير : ١٦٩٩ .

وبعد ، فقد كان هذا رأى معظم المعاصرين ، وإن لم يشعروا بذلك . كان عملهم يقتصر على تقليد أشعار بندار — أعظم شعراء الأغاني في اليونان القديمة — و « قصيدة الاستيلاء على نامور » . فقد قال جان باتست روسو الذى كان يعد أكبر شاعر غنائى فى هذا الوقت « كان اعتقادى دائماً أن آسن طريق للوصول إلى ذروة الاجادة هو تقليد عطاء المؤلفين السالفين » لذلك تجد الاجادة عنده ، عبارة عن علامة استنهام أو تعجب أو فورة كاذبة . فهو يبتدىء كلامه بتعجب مدهش : ماذا أرى ؟ ماذا أسمع ؟ لماذا تنشق السماء ؟ لأن الأميرة فلانة تقترن ، أو الأمير فلان يولد ، أو الملك فلان يموت » . ثم يتبع ذلك ببعض الأبيات يدعمها مدد من الميثولوجيا ، ثم ينتقل إلى مقارنة ، أو وصف : وهكذا تتم القصيدة . ولا يكتمل لها النجاح ، إلا إذا اختفى المنطق ، وبناء القصيدة ، تحت ستار من الغموض الفنى . « وهذا الخروج على القواعد والفن والمنهج ، إنما يزداد روعة كلما ازداد خفاء ، وكلما وهنت فيها الروابط ، مثلما يحدث فى أحاديثنا إذا أوحى بها نشوة العقل ، التى تعوقها عن الخمود . بمعنى أن هذا الغموض هو الحكمة فى ثوب الجنون ، متحررة من تلك القيود الهندسية التى تجعلها ثقيلة ، وتسلبها الروح . . . »



ويمكننا على أسوأ الفروض ، أن نلتجئ إلى الظروف المخففة ، بل أن نذكر أيضاً فى كتاب الحساب الكبير ، حيث يسجل نجاحنا وفشلنا ، بعض القيم المستنفذة ، مقابل كل هذه الخسائر .

أى حلم عذب ، أن نحلم بوجود الشعر الخالص ؛ لا شعر هناك إلا نسبي ، نسبي لكل جيل يمضى . لكن يبقى الشعر ويعيش ، يكفى أن جيلاً ، حتى ولو كان مولعاً بالعقل المجرد ، لا يزال يجد بعض الفتنة فيما يسميه « الخادع الكذاب » ؛ يكفى أن يرفض — وقد ناقض نفسه — اتباع مثال رجل يعترم تحويل الشعر إلى نثر ؛ وحسبه أن يكون لديه كتاب تؤثر فيهم الموسيقى والحرس ، يوهونه — مهما كانوا عليه من ضعف — بوجود انسجام رفيع . لا يوجد شعر خالص ؛ ولكن هناك طلب أبدى للشعر . بدا بوب شاعراً موهوباً ، وإنه لشاعر موهوب مادام قد بدا كذلك ؛ وقد وفى الطلب الخجول لزمته ، ويزيد .

ومن هنا ، ليس غريباً أن نقول إنه حتى في هذا الزمن المجذب ، كان هناك شعر ، في نظر المعاصرين . كان كانتز في رأى الألمان شاعراً ؛ وحتى في رأى الفرنسيين ، مادام قد كان من بين النماذج التي قدمت لهم فيما بعد ، عندما أريد لهم أن يتذوقوا طبيعية الألمان وبساطتهم . وقدم الايطاليون سلسلة من الشعراء كانوا موضع إعجاب أوروبا بأسرها : والمعجزة ، أنه بالرغم من كل الأسباب التي كانت تدعوهم إلى كتابة شعر ردى ، فقد نظموا أشعاراً بقيت أكثر من يوم ، أكثر من سنة ، أكثر من قرن ، أشعاراً تفتننا اليوم . فقد كانت تنقل كاهلهم الثقليد « المارينيه » (١) ، التي كانت تنصحهم بالتغنى دون سأم ، بالنيران الثلجة ، والشلوج المتأججة ، والرقعة القاسية ، والشدة المستحبة . وكانت أكثر من ذلك إغثاً لكاهلهم ، الذكريات القديمة ؛ وحينما كانوا لا يشعرون باضطراب إلى تقليد أناكريون ، كانوا يجعلون من تقليد بندار واجبا عليهم . وكان مما يسبب ارتباكهم ذلك العلم ، الطارىء الجديد ، الذى باشروه ، وأحبوه ، وأرادوا أن يخلو له مكانا في أشعارهم . ظلت قصائدهم ثقيلة تنبئ عن كثير من الجهد ، بما تحمل من كلمات فخمة ، ولتحرقها إلى الوصول إلى ذلك « الاختلال » الجميل ، مجد الفن . ولكن حدث ذات يوم ، أن خطر ببال فرانسيسكو ريدى — بالرغم من تقليده بندار في التكلف والغموض — أن ينادى باكوس بين تلال توسكانيا ، وأن يذيقه خمور الكروم ، الواحدة تلو الأخرى ، وأن يصوره مترنحاً ، مشأثماً ، وهو ينتشى شيئاً فشيئاً :

*Chi la squall ida cergovia  
Alle labbra sue congiugne,  
Presto muore, o rado giugne  
All'età vecchia e barbogia:  
Beva il sidro d'Inghilterra  
Chi vuol gir presto sotterra:  
Chi vuol gir presto alla morte,  
Le bevande usi del Norte ...*

إنه لتجديف من باكوس ، أن يلفظ أسماء هذه الخمور الدنسة ؛ ينبغى أن تتطهر شفثاه :

(١) نسبة إلى ماريني الشاعر الايطالى الذى أخذ عليه التكلف فى الأسلوب. [الترجمان]

*Si purifichi, s'immerga,  
Si sommerga  
Dentro un pecchero indorato,  
Colmo in giro di quel vino  
Del vitigno  
Si benigno  
Che flammeggia in Sansovino... (١)*

في ذلك اليوم ، أنقذت صورة من صور الشعر ، ثقيلة لكن حية سرحة ،  
عذبة ، مبتكرة ، بالرغم من أنها تزعم تذكرنا بالشعر الغنائى القديم . وسرة  
أخرى أسمعتنا فانسترو دافليكاجا - وقد حزن على عبودية وطنه - صيحات  
جميلة ملأها أنات مؤثرة :

*E t'armi, O Francia? e stringi il ferro ignudo  
Contra a me, che a'tuoi colpi armi ho di vetro,  
Nè a me la gloria de l'antico scetro,  
Nè l'antica grandezza a me fa scudo? (٢)*

وأكثر من ذلك ! البهرج ، الاستعارة المبالغ فيها إلى حد الجنون ، الصور  
المعقدة التى شوهتها المغالاة فى التكلف ؛ كل القرن السادس عشر Secentismo  
أراد الايطاليون أن يعدوه عن أشعارهم . فثاروا . لا إطناب فى الشعر ، بل  
بساطة وطبيعية . إن العبء ثقيل على المنزل : ينبغى الاستغناء عن الخدم .  
ماذا أقول ؟ لا لزوم لببيت على الاطلاق ، ولا لزوم لسقوف ولا جدران :  
ويعقدون اجتماعاتهم فى رياض ، تظلمها السماء ؛ يريدون ابتعاث أركاديا القديمة،  
أرض النعيم ، حين كان الناس يستروحون الشعر فى نسات الرياح ، وحين

(١) *Bacco in Toscana, 1685* : باكوس فى توسكانيا .

ذلك الذى يقرب من شفثيه - الجعة الشاحبة الحزينة - يموت سريعا - أو قلما  
يصل - إلى الشيخوخة الحرفة - وليرشف شراب التفاح الانجليزى - من يريد أن  
يوارى التراب سريعا - ومن يرد أن يلاقى الموت - فعليه بجمر الشمال . . .  
. . . يجب أن نتطهره شفثاه ، أن نغطسها - أن نغرقها - فى كأس من ذهب - تفيض  
بتلك الخمر - بذلك الكرم - العذب أى عذوبة - الذى يتلأأ فى سانسو فينو !

(٢) *L'Italia alla Francia, 1700* الطريقة الفرنسية

إيه يا فرفسا أنشهرين السلاح ؟ وتجردين السيف - ضدى ، أنا التى لا أستطيع  
أن أواجه ضرباتك إلا بسلاح من زجاج ؟ - ضدى أنا التى ، لا مجد صولجانى  
القديم - ولا عظمتى الحالية ، يستطيعان هاتينى ؟

كان الرعاة يبعثون الألحان السماوية من مزاميرهم الريفية . وأسفاه ! إن تنفيذ مشروع في مثل هذا الجبال ينقلب إلى تهريج وسسخرة . إن أول ما اتجه إليه اهتمام أولئك « الأركاديين » ، أن يضعوا لأنفسهم قوانين ؛ وأن يتنكروا بأسماء رعاة تقليدياً للاغريق ؛ ويسعون في جماعات عديدة تنتشر في إيطاليا كلها ، أكثر حذقة وادعاء من أركاديا الرومانية ؛ إذ يلقون في رياضهم أشعاراً لا تقل رداءة عن تلك التي أرادوا أن يتخلصوا منها : هي هي بذاتها ، احتفظوا بها ولم يغيروا شيئاً منها . فانتهى المشروع إلى إفلاس . ومن دأبنا ألا نهتم إلا بالافلاس : ولو شئنا لاستطعنا أن ننظر إلى جمال المشروع ونبله . ولا زال في مقدورنا أن نجد في الحقول الإنجليزية بعض السنابل ، المتخلفة عن الحصاد . صحيح أنه ليس لدى برايور لوحات عظيمة حية الألوان : ومع ذلك فانه يجبد إضفاء لون بهيج على مواطن الجبال في رسومه الدقيقة . إنه يجهل « السيمفونية » الهائلة : لكن لحنه رقيق ؛ وإذا كان الفن الذي لفته إياه الاغريق واللاتين ، نتيجة لطبيعة جديدة ، فان تلك لا تمحو طبيعته الأولى ؛ فاذا كان « أنا كريون » ، و « هوراس » أستاذه المفضل ، قد هذبا من سوهبته ، فانهما مع ذلك لم يخلقاها . وهو وإن لم تكن عواطفه قوية ، فانه يتغنى في جمال بسعادة أوقات الفراغ ، وبعذابنا في الحياة ، وخوفنا من المات ، وسروق الزمان ، وبكاء كلويه على ذبول زهوره ؛ وهو يخلو من الغضب والاحتقار والحزن الشديد : ولكن من حين إلى حين تتطرق نغمة حزينة إلى أغانيه ، فينفذ حينذاك بصورة أعمق إلى شغاف القلوب . يجوب ماتيو أنحاء المجلترا القديمة مع صديقه جان ؛ فيتقدم إلى خان كان يعرفه من قديم :

*Come here, my sweet landlady, pray how d'ye do ?  
Where is Cicely so cleanly, and Prudence, and Sue ?  
And where is the widow that dwelt here below ?  
And the hostler that sung, about eight years ago ?  
And where is your sister, so mild and so dear  
Whose voice to her maid like a trumpet was clear ? (١)*

(١) تعالى إلى ، يا صاحبة الفندق ، بربك كيف حالك ؟ — أين سيسيليا النظيفة ، وبرودنس وسوزي؟ — وأين الأرملة التي كانت تقيم هنا في الطبقة الأرضية؟ — والسائس الذي غنانا من نحو ثمانية أعوام؟ — وأين أختك العذبة الغالية؟ — التي كان نداؤها لوصيفتها واضحاً كالنفير؟ (ماتيو برايور، من قصيدة *Down Hall* ، عام ١٧٢٣) .

إنها لوحة انجليزية : الخان الريفى ، وصاحبه الجالس إلى المائدة ،  
وصاحبتة :

*By my throth! she replies, you grow younger, I think.  
And pray, Sir, what wine does the gentleman drink?  
Why now let me die, Sir, or live upon trust,  
If I know to which question to answer you first. (١)*

كل ذلك طبيعى وبألوف ؛ ثم ننتقل — دون أن تتغير النغمة — إلى التأثر  
الذى يتملكنا عندما نفكر فى ذكريات الماضى :

*Why, things, since I saw you, most strangely have varied,  
And the hostler is hanged, and the widow is married.  
And Prue left a child to the parish to nurse;  
And Cicely went off with a gentleman's purse;  
And as to my sister, so mild and dear,  
She has lain in the churchyard full many a year. (٢)*

ولا يصعب علينا ، أن نبين بعض الشعر عند الآخرين ؛ سواء تراءى  
شعراً لآذان من يسمعه لأول وهلة ، أو غلفته السنون حتى احتفظ بمسحة من  
جمال قديم مؤثر إلى وقتنا هذا . ومع ذلك ، فنحن لا نستغنى عن أن نستعين  
بالظروف الخفيفة ؛ وأن نتخلى عن المطلق لنقنع بالنسبى ؛ وأن نقرر ، مع  
كردوسى Carducci ، أنه لم يوجد زمن أقل شاعرية من الخمسين سنة الأولى  
من القرن الثامن عشر، وبذا كانت هنا بداية عهد من الاجداب ؛ وأن نعترف ،  
أخيراً ، بأن أحسن الشعراء الذين سردنا أسماءهم ، ليسوا إلا شخصيات  
هزيلة بجانب داتى وشاكسبير .

\*\*\*

فلنعترف بأن هذا الانقلاب نفسه قد وقع فى معظم سيادين الأدب ، فقد

(١) فتجيب ، قسما سيدى ، أرى أنك تصغر سنا — وبربك يا سيدى أى نبيذ يشربه  
السادة ؟ — فلاأمت يا سيدى أو أعش على المصدق — إن كنت أعرف أى  
سؤال أجيبك عنه أولاً .

(٢) آه ، لكم تغيرت الأمور منذ رأيته أخيراً— فقد شنىق السائس وتزوجت الأرملة —  
وتركت ترو طفلا للابوشية لتريه — وهربت سيسليا بحافضة تقود أحد الوجهاء —  
أما عن أختى العذبة الغالية — فانها ترقد فى رحاب الكنيسة منذ أمد طويل .

فقد الناس معنى القيم المبتدعة ، ظانين أن التأليف هو التقليد ، هو الطاعة وقف النقاد على مفترق الطرق لمنع المؤلفين من الضلال ، وإعادتهم إلى الطريق الأمين . وكما قال توماس ريمر — الذي كان له الفخر في تبيان أن شكسبير لم يفهم شيئاً في المسأة — فإن الشعراء قد يصبحون في غاية الاهمال إذا لم يشعروا بأن النقاد يقفون لهم بالمرصاد .

وما أكثر النقاد ! الأسوات الذين لم يتخلوا عن أساكنهم ، أرسطو ، هوراس ، لونيچين ، الذي لم ير احتفالا مثل هذا قط . والأحياء : الأب بوهور ، الأب راين ، والأب لى بوسيه ، العلماء الأعلام الذين يعرفون كيف يكون التفكير السليم في مؤلفات الفكر ، وكيف تنظم الخطب والأشعار ، وكيف ترتب الملاحم الشعرية . وفريق من الانجليز أصحاب السلطة ، جيرار لانجيين وإدوارد بيش وليونارد ويلستد ، وجون دنس وغيرهم . وفي إيطاليا سوراتورى وكريسيمبيني وجرافينا يدرسون جوهر الشعر والمسرحية الكاملة . وفي ألمانيا يشرح كريستيان فرنيك أن الأدب الفرنسى إنما ارتفع إلى ذروة الكمال ، لأن كل مؤلف في باريس ، لا يظهر إلا ويتبعه النقد على الفور ، حتى ولو كان لمؤلف مشهور . . . يا للحمية ! يا للسلطة الصارمة ! يا للتذمر ويا للنزاع ! فلنرث للمؤلفين على ما يتعرضون له من امتحان وتأييب — لقد سايروا الزمن ، وكان لهم في ذلك متعتان : متعة الصياح في الرد للمتكبرين ، ومتعة الطاعة للكسالى الخاسلين .

وهرم بوالو . لقد لخص مبادئه الأدبية في مقدمة طبعة مصنفاته عام ١٧٠١ ، ثم ودع الجمهور : « بما أن طبعة مؤلفاتي هذه قد تكون الأخيرة التي أشاهدها ، وليس من المحتمل أن تمتد حياتي أكثر من ذلك ، إذ بلغت الثالثة والستين من عمري وأرهقتنى الأمراض ، فرجائي أن يتقبل الجمهور وداعى ، وأقدم له عظيم امتناني على ما أبداه من كرم في الاقبال على مؤلفاتي التي لا تستحق في الحق كل هذا الاعجاب الكريم . . . » بيد أن الجمهور لم يكف عن الاعجاب ، والدليل أن بوالو في نفس وداعه هذا يشكر الكونت دى إريسييرا على ترجمته الشعرية البرتغالية لمؤلفه « فن الشعر » والتي تفضل بإرسالها إليه من لشبونة مصحوبة برسالة وأشعار بالفرنسية من تأليفه . ترى ، أي بلد لم يقرأ فيه « فن الشعر » ، ويفسر ، ويترجم ؟ أي بلد لم يتخذ فيه

مكانة القانون؟ إن بوالو، ذلك الفرنسي المزهو الذي لم ير ولم يقدر شيئاً خارج حدود بلاده، لا يزال بالرغم من ذلك يمثل دور مشترع بارناس (١)، السلطة الباقية، بينما هي قد ضعفت في كل مكان.

إنه لم يعد شخصاً فحسب بل أصبح مؤسسة: لقد أقبل الناس على زيارته في أوتى، كأنما يزورون اللوفر. تخيل امرأة أديبة - مسز سونتاجو، ترحل لتلحق بزوجها سفير إنجلترا في القسطنطينية، فتقرأ أشعاراً تركية. ترى فيمن تفكر في ذلك الحين؟ في بوالو. - إنها تقول: «أرى في هذه الأشعار كثيراً من الجمال؛ فمثلاً هذا التشبيه «سلطانة لها عيون الغزال»، يعجبني غاية الإعجاب وإن لم يبد ظريفاً بالانجليزية؛ يخيل إلى أنه يعرض صورة حية للنار التي تضطرم في عيون حسناء فاترة. لقد لاحظ بوالو بدقته، أننا لانستطيع أن نحكم على جمال هذا التعبير أو ذلك عند القدماء، بناء على الفكرة التي يمثلها، لأن هذه الكلمة أو تلك، وقد كانت عندهم لطيفة، ربما تبدو عندنا مبتذلة أو جارحة للأذن...» (٢)

لم يفكر بوالو أبداً في أنه يمكن لمؤلف أن يستغنى عن العبقرية: لكن أخلافه خالفوه، مفضلين الأصول الفنية على العبقرية. قالوا إنه يكفي توافر شرط واحد لنظم الشعر الجيد: وهو احترام القواعد. لقد أيد بوالو قاعدة التفريق بين الأنواع: فكم من تمييز تافه، كم من تفريق وتقسيم ستؤدى إليه قاعدته هذه! كانت الكلاسيكية روحاً وإرادة، بينما الكلاسيكية الكاذبة أصبحت صيغة: كل الفرق هنا.

الأخلاق: هو ذا ما سيدافع عنه الورثة المساكين، كأنما ينشدون السلوة. فالملحمة الشعرية يجب أن تكون أخلاقية، هدفها الإصلاح الخلقى. والشعر ينبغى أن يكون أخلاقياً، يعلم الحقائق الدينية، إنه علم أخلاقى، وجزء من علم اللاهوت. «الشاعر الحق هو الذى يجمع بين الفائدة والتسلية حتى إنه يعلم حينما يسلى، ويسلى حينما يعلم». - «الشعر ساحر، لكنه ساحر مسالم، وهو هذيان يطرد الجنون». والمسرح على الأخص ينبغى أن

(١) بارناس: جبل مخصص لاله الشعر (أبوللو) في الأساطير اليونانية. [الترجمان]

(٢) إلى بوب من أدرنه، إبريل ١٧١٧.

يكون مدرسة ؛ تباً للمؤلف الهزلي إذا هزأ بالفضيلة ، وأضمر الرذيلة ! لقد وجدت الملهاة في إنجلترا شكلاً مبتكراً ؛ كانت تقتبس الحكمة من النماذج الفرنسية وعلى الأخص من سوليير ؛ ولكنها أضفت عليها نكهة خاصة ، بأن مزجت بينها وتبلتها ببعض التعابير البتذلة والمواقف الخليعة ؛ فكانت متهتكة فاضحة ، مريحة ، لطيفة ؛ تلك هي المسرحية التي جعلها كونجريف وفانبرو تنتصر على مسارح لندن . إلا أن أكير كيا هو جيريمي كوليير هاجمها هجوماً عنيفاً ، ونشر في عام ١٦٩٨ مقالة عن « تهتك المسرح الانجليزي » . شيئاً من الأخلاق . إن ما يعوزنا هو الأخلاق ! على المسرح أن يبين لنا بطلان التعاطف البشري ، وتقلبات الحظ المبالغتة ، والعواقب الوخيمة للقسوة والظلم ، وجنون الكبر ، وإجرام النفاق . لكن ماذا يفعل المسرح الانجليزي بدلاً من ذلك ! لقد استحوطت الفضيلة إلى سخرية ، وساد التجديف والكفر والفحشاء ، ولم يتورع الناس عن الهزء برجال الدين ! يا للعار ! يا للفضيحة ! — والشئ الأغرب ، أنه بعد مناقشات عنيفة أثارها جيريمي كوليير ، أفلح الروح البوريتاني في إصلاح الملهاة ، التي لما رأت أنها لم تعد تستطيع العيش في الشكل الذي ترضاه ، آثرت أن تموت .

وفي نفس الحين تقريباً ، حاول الايطاليون خلق ملهاة تحترم العقل والأخلاق في وقت واحد . ففي نابولي — بصرف النظر عن روما وفلورنسة — وجد مؤلف هو نيكولو أمستا ، تخلى عن المرح والهوس ؛ لا شخصيات خليعة ، لا ألفاظ مبتذلة ، لا فورات عاطفية ، ولا خادسات فاجرات ، ولا مكائد جنونية ؛ بل الانتظام ، بل الأخلاق .

إن تأسيس مجمع رسمي يختص بالفحص في المسائل اللغوية ، والسهر على سلامة الذوق في الأدب ، رغبة لم تراود ذهن دولة من الدول سوى فرنسا ، حينما كانت متحمسة للنظام والطاعة . أما الآن فإن الشعوب المجاورة تحسد هذه الأكاديمية الفرنسية ، التي اتخذت مهمتها رويداً رويداً صفة مقدسة ، واكتسبت نفوذاً لم يعرفه مجلس آخر ، والتي تعد كل أفعالها — كجائزة أو احتفال أو خطبة — أحداثاً مهمة جليلة . وابتغى الانجليز ، أكثر شعوب الدنيا حرية ، أن يكون لهم أكاديمية مماثلة ، يكون من أعضائها بيور الذي يعد في بريطانيا بمثابة لافونتين ، وبوب الذي يعد بمثابة

بوالو ، و كوتجرينف الذى يعد بمثابة موليير (١) ، وسويفت الذى أعلن أنه سيطيح الأكاديمية مختاراً ، وإن كان لا يهتمل أى نير (٢) . وبعد مجادلات عنيفة أخفق المشروع . لكن على الأقل ، تأسست أكاديمية برلين فى عام ١٧٠٠ ، والأكاديمية الملكية الإسبانية فى عام ١٧١٣ ، وحتى الروسية البعيدة حصلت على أكاديميتها فى عام ١٧٢٥ .

إن النقد ، الذى كان لا يقيم وزناً لجميع نظم الماضى فيما يخص الدين أو السياسة ، أصبح هنا ، على النقيض ، محافظاً . كان يهتم القديسء بأنهم يعوقون تقدم أنوار المعرفة ؛ أما هنا ، فكان يستشهد بهم كألهة حافظلة . كان يجعل من الرأى الشخصى قاعدة لكل شىء : أما هنا فلا يرى السلام إلا فى سرعاة القواعد ، إذ يحول وقائع التجربة إلى إلزامية . إذا شئت أن تؤلف تراجيدياً ، فخذ أربعاً وعشرين ساعة ، و بهواً فى قصر ، وبعض الواجب ، وشيئا من العشق ، وبعض أبطال مشاهير .

\* \* \*

فى عام ١٧١١ ، غمرت السعادة الانجليز لرؤيتهم مؤلفاً صنواً « لفن الشعر » يولد فى أرضهم ، دججه أحد مشرعى « بارناس » . رجل عليل ، قمى ، عصبي ، مرهف الحس لكل نفثة ولكل فيض عاطفى ، ولكنه بالرغم من كل هذه الفوارق ، وغيرها ، خلف مجيد لبوالو . وقد كان ينتظر الكسندر بوب سؤود طويل ، مادام عمره لم يكن يتعدى الثانية والعشرين ، عندما نشر مؤلفه مقال عن النقد : *Essay on Criticism* .

يخيل إلينا أننا نجد فى هذا المؤلف الذى سرعان ما أصبح واحداً من أشهر مؤلفات العصر ، معركة نهائية . كان فى مؤلف « مقال عن النقد » رجلاً ، لا يتفقان فى كل آن : بل طالما يتعارضان . أحدهما يمثل حمية طبع فردى حى ، والآخر يمثل الطاعة والنظام اللذين سينتصران . أولى هاتين الشخصيتين تطلق لحميته الفتية العنان ، وتفصح عن الشعور الذى يعتمل — سرا أو جهراً —

(١) فولتير : رسائل فلسفية ، الرسالة ٢٤ . عن الأكاديمية .

(٢) سويفت : اقتراح لتبصحيح وتحسين وتوطيد اللغة الانجليزية ، لندن ١٧١٢

في قلوب معظم الكتاب : السأم ، فراغ الصبر ، والعصيان ضد النقاد . فنحن نعلم أن الكتاب يرحبون بالمدح ، ولكنهم لا يتحملون أحكام الادانة . يحمل بوب على النقاد فيقول : أولئك الناس الذين يعيبون ما في مؤلفاتي من نقص وقصور ، الذين يفرضون على حكمهم ورقابتهم ، أى حق لهم ؟ لقد أعلنوا ذات يوم أنهم سيكونون نقاداً ، إنها المهنة التي اختاروها : فهل يكفي هذا الاختيار ليكون أساساً لتفوقهم ؟ واعجبا ! أليق أن أى أحق يضى على نفسه مظاهر الأهمية ، ويزعم نفسه وصياً على ؟ هل يجوز أن أى شاعر فاشل مغمور يحكم على قيمة أشعاري ؟ أو أن مؤلفاً مسرحياً فاشلاً يتقدم ليعلمنى كيف ينبغي أن أكتب الملهاة ؟ فليسمعوا منى بعض الحقائق بدورهم ، وليحدث مرة أن ينتقد النقاد كاتب . كل شاعر ردى يقابله عشرة حكام أردياء ؛ والعجرفة ليست شهادة بالقيمة ، وقبل أن نحكم ينبغي على الأقل أن نفهم : إن ذهننا محدوداً عاجزاً عن استيعاب وجهة نظر الكاتب ، لا بد من أن يخطئ في التفسير . ما أكثر المزايا التي يحق لنا أن نطلبها في السادة النقاد — أقران أريستارك (١) — هل اكتسبوا رأيهم السديد الأكيد بالتجربة وبالعمل ؟ هل أوتوا مرونة الذهن ، والحدس ؟ هل بلغوا من التواضع ، بحيث لا يعرفون الغيرة والحسد ؟ هل يقدرون على غض النظر عن العيوب الهينة ، وعلى التنويه بالمواهب ؟ وعلى أن يجودوا بالمدح بخلوص نية ورضا بدلاً من التقتير فيه كالبخلاء ؟ هل يجدوهم دائماً الانصاف ؟ وأسفاه ! إنهم عبيد القوة ، والشهرة ، والأحزاب السياسية ، والأهواء الدينية . . .

إن هذه الغضبة ، التي تنبئ عن نفس جياشة حية ، وعن طبع لا يرى أنواء أنكد من أنواء المحبرة الهوج ، لمتعة جداً . إلا أن الأعجب أن ترى كيف يتصدى بوب الآخر للأول — الذى سرعان ما يقتنع في غير عناء — لأنه في الحق لم يحمل على النقاد إلا لأنه يتمنى لهم رفعة المقام . إن بوب الحكيم المنطيق يعلن سباده ونظرياته ، فيقول إننا يجب أن نتبع الطبيعة ، الطبيعة المعصومة ، الضوء الصافي ، الشعاع النوراني : بيد أنه يجب أن نتبع هذه

(١) أريستارك : عالم نحوى اسكندرى وناقد مشهور ، مربى أولاد بطليموس ، في القرن الثانى قبل الميلاد . مضرب المثل في شدة النقد مع الصحة والوضوح . [ المترجمان ]

الطبيعة الثابتة الشاملة ، يهدى العقل : يجدر بنا في الواقع أن نسوس «بيجاز» (١) لا أن نهززه ، أن نكبج فورته لا أن نستحث سرعته ، ينبغي أن نخفف سرعة الفرس المجنح الأصيل . إن الفن هو الطبيعة ، لكنه الطبيعة المستكملة ، الطبيعة النظامية ، الخاضعة للعرف . فليتبع الشعراء إذن القواعد التي اقتبسها الأقدمون من الطبيعة ، وليدرسوا المبادئ النافعة التي تلقننا بها اليونان الحكيمة كيف نكبج — في الوقت المناسب — جهاج الخيال ، لنرد له قوته ! لقد جرب فيرجيل يوماً أن يرتكن على عبقريته ، ولكنه أدرك للحظ أنه هو ديوروس والطبيعة ليسا إلا شيئاً واحداً ؛ فترك مشروع الجري ، ستمتناً ، مذهولاً ، وبلغ به الحرص أن أخضع مؤلفه لقواعد صارمة ، كما لو أن كل فقرة من شعره قد فحصتها عين أرسطو . فليقدر الشعراء إذن عطاء الماضي النموذجيين حق قدرهم : فإن تقليدهم تقليد للطبيعة . وبالمثل ، فليتناولوا مؤلفاتهم بالصقل المرة تلو المرة ! إن الأسلوب الذي يبدو سلساً لنتيجة للفن ، لا للمصادفة ؛ إنه لبدارة الرقص نكتسب سهولة الخطوة . — هكذا يعبر بوب الكلاسيكي . إنه مشبع بمؤلفات أولئك الذين يحبي فيهم أسلافه العظام ، أرسطو وهوراس ودينيس هاليكرناس وبترون وكنتيليان ، ولونجين ؛ وإرازم الذي قهر الخرافة القوطية ، وفيدا الذي يترجم عن تفوق إيطاليا في عصر ليون العاشر ، وبوالو . إنه يباهى بأولئك الأسلاف الأجداد الذين ينحني أمامهم تبجيلاً ، ثم يلتفت صوب معاصريه ، زاعماً إرشادهم وقيادتهم بدوره .

\*\*\*

لا بأس بأن نبين بعض المؤلفات ، لتحقيق امتياز النظريات ؛ وكان من اللازم أن يكون هذا أسراً يسيراً . سادست طريقة نظم الملاحم الشعرية معروفة جيداً ، فإذا ينتظر الشعراء ؟

*Excelling that of Mantua, that of Greece,  
A wond'rous, unexampled Epick Song,  
Where all is just, and beautiful, and strong,  
Worthy of Anna's arms, of Malbro's Fire,  
Does our best Bard united strength require ...*

(١) «بيجاز» : في الأساطير اليونانية ، فرس ذو جناحين ويعبد رمزا للشعر . [الترجمان]

ملحمة شعرية ، تفوق سلاح مانتوا (١) وسلاح الأغريق ؛ ملحمة رائعة معدومة النظير ، كل ما فيها صحيح ، قوى ، جميل ، جدير بأسلحة « آن » ونا « مالبورو » ، — ذلك ما تطلبه القوات المتحدة لأشعر شعرائنا . . . إن ريشارد بلاكور ، الذى يحمس مواطنيه بهذه الكلمات ، قد ضرب بنفسه مثلاً طيباً . هدف الشعر هو تثقيف الذهن وتهذيب الأخلاق ؛ والملحمة هى أسمى أنواع الشعر ، وأكثرها أخلاقية أيضاً . فالأبطال الذين تقدمهم ، يعلمون الدين ، والفضيلة ، والسيطرة على الشهوات ، والحكمة : إذن فمن الواجب نظم الملاحم . صحيح أنه منذ هوميروس وفرجيل لم يفلح فى ذلك أحد ؛ ولكن مرد هذا الاخفاق ليس إلى الافتقار إلى العباقرة بل إلى الجهل بالقواعد . واليوم ، لدينا خلاف أرسطو وهوراس ، أدلاء مثل راين وداسيه ولويوسيه ، وريمر ؛ إذن لم نعد نجعل شيئاً مما يلزم لاتقان التأليف : فلنبدأ .

ويبدأ : « خبرنى ، يا عروس الشعر . . . » فتوحى إليه العروس بقصائد الفروسية « الأمير آرثر » ، و « الملك آرثر » و « إيزا » و « ألفريد » ، وبالقصيدة الفلسفية « الخليقة » ؛ عشرات من الأغاني ، وآلاف مؤلفة من الأشعار . ولكن ريشارد بلاكور كان طيباً أكثر منه شاعراً ، فجر النسيان ذيوله على قصائده .

والمسرحية ؟ إن عقلاً ممتازاً ، فقيهاً مشهوراً ، هو جان فانسنزو جرافينا ، سوف يقدم لنا النموذج . إنه يدرس البحوث ، وفنون الشعر ؛ إنه لا يقنع بالكلاسيكية الفرنسية ، ولا بمؤلفات النهضة ، بل يصل إلى التراجيديات الاغريقية ، التراجيديات الصحيحة ، الأصلية ؛ وإنه ليملك ناصيتها ، ولن تهرب من قبضته . وفى مقدمة المسرحيات الخمس التى ينشرها فى نابولى فى عام ١٧١٢ ، يعطى جرافينا الكلمة للتراجيديات شخصياً فتصبح : هأنذى ! أخيراً أظهر فى صورتى الأولى ، بعد قرون طوال من الجهل ! أخيراً وصلت ، بارشاد فقيه فى القانون ، خطيب ، فيلسوف ، يجرسنى « العقل الشاعرى » الذى تنقاد له القواعد ، وتوجهنى شعلة النقد ! . . . إن هذه العروس تحسن الكلام : لكن هذا لم يمنع مسرحيات جرافينا من أن تكون مردولة .

(١) مانتوا : بلد فيرجيل فى إيطاليا . [المترجمان]

بدأت في كل أنحاء أوروبا مباراة عامة في التراجيديا ؛ وأخذت الشعوب المختلفة تسعى للحصول على الجائزة وإكليل الغار ؛ ورجال المسرح يسعون جاهدين من كل صوب . فكرييون Crébillon (١) ينافس راسين ؛ ولكنه يسرف في الشخصيات البرونزية والسوداء . لقد أخذ الأجنبي ينافس فرنسا : آه ، لو استطاع أن يكسبها ! إن كرييون على الأقل لم يقتصد في الوقت ولا في العناء ولا في عدد المسرحيات ؛ بل بذل كل ما في وسعه طوال سنين . إنه يوم يستحق الذكر ، يوم قدم المريكيز « سيبيوني سافي » لأول مرة ، في فيرونا في ١٢ يونيو ١٧١٣ ، « ميروب » ، تلك المسرحية التي كانت تبدو أكثر كلاسيكية من كل المسرحيات الكلاسيكية الفرنسية ، بالرغم مما كانت عليه من هزال . أي تصفيق ! أولا في إقطاعيته ، ثم في كل أنحاء إيطاليا ! وأي نصر ! أي إعجاب بتلك المشاعر الدفاعة ، وتلك المقطوعات المفخمة ، وتلك الأشعار الموزونة بطريقة آلية ! ولقد أثارت هذه المسرحية ضجة كبرى في أنحاء العالم ، وقد ترجمت ، ونوقشت وامتدحت ؛ ثم وصلت فيما بعد إلى جينته عن طريق فولتير وليسنج . والانجليز أيضاً أدركوا جيداً أنه لا بد لهم من أن يصلحوا مسرحهم ، وأن يوقفوا تجاوز شكسبير غير اللائق ، وأن يمنعوا « التراجيديا - الكوميديّة » من أن تزعم التشبه بالتراجيديا نفسها ، وأن يحذفوا من المسرح أثر المعارك ، والجلبة ، والمواكب ، والأبواق والطبول ، والاعتيالات ، التي لا يمكن أن نحتمل مشهدها ، إذا أوتينا شيئاً من سلامة الذوق ؛ والخلاصة أنهم كانوا يصبون إلى التراجيديا المنتظمة الجميلة ، المرسومة بدراية ، التي لا تبالغ في الرعب أو الشفقة ، وتبدو متواضعة في الفروسية ، وسامية دون مغالاة . كانوا يبذلون كل ما في وسعهم . ففري ناتانيل لى يؤلف نيرون ، سوفونيزب ، جلوريانا ، والملكات المتنافسات ، وميتريدات ، وأوديب ، وتيودوز ، بروتس وغيرها ، حيث تجتهد عبقريته المفطورة على الارتباك ألا تدخل واقعتين في مسرحية واحدة ، وأن تحذف منها الحشو غير النافع ، وأن ترضى قاعدة وحيدة الزمن المتألهة ، وأن تحترم

(١) كرييون : شاعر مسرحي فرنسي : صاحب تراجيديا « راداميس وزنوبيا »  
[ المترجمان ] . (١٧٦٢ - ١٦٧٤)

العرف ، وألا تتكلم إلا في لهجة نبيلة مفخمة . ولقد وفق في بعض الأحيان ، ولم يكن بعيداً عن هذا الانتظام الذي يرى أنه الجبال الأسمى . وكانت مسرحية « البندقية المنقذة » *La Venise Sauvée* التي ألفها أوتواي Otway نجاحاً جَمِيلاً ، يثبت للأجانب أن المسرح الإنجليزي قادر على أن يكون صحيحاً ومؤثراً في نفس الوقت . ولكن سنة ١٧١٣ تسجل أخيراً الانتصار . يومئذ ظهرت « كاتون » مسرحية أديسون ، الجديرة بأن تترجم على الفور إلى الفرنسية : إن لندن التي كان لديها قرين لبوالو أصبح لديها قرين لراسين ، وبدأت أوروبا تمجد هذه المسرحية الرائعة . إنها نتيجة نصف قرن من الجهد أو ما يقرب من ذلك . ولم يكن في مقدور الإنجليزي أن يهذبوا سالم يكن مهذباً من عبقريتهم في مدة أقل من هذه ، وأن ينتجوا هذه التحفة الرائعة .

وتخلف الألمان : ولكنهم مع ذلك سيصلون ، فلنتذرع بالصبر . إن جوتشد Gottsched يتألم من تخبط المسرح الألماني ؛ فيعكف على العمل ، يقرأ « فن الشعر » لأرسطو وشرحه ، ومسرحيات القدماء ، والشعراء الفرنسيين ، حتى بما تتضمنه من مقدمات ؛ فيستيقظ ، مدركاً أن للفن المسرحي قواعد تبلغ من المنطقية ، والقطعية ، وتقضى بها الضرورة الحتمية ، حتى إن ألمانيا قد تظل في حالة الهمجية طالما ترفض مراعاتها . وعلى ذلك يسعى جوتشد بكل وسيلة ليوقف على أسرار الفن ، وأخيراً يقدم ، منتصراً ، مسرحيته « كاتون على فراش الموت » في عام ١٧٣٢ . ويقول إنه قد كان يكتفى بترجمة مسرحية أديسون « كاتون » ، لولا أنه وجدها غير كاملة الانتظام ، فيها شيء من الاستطراد ؛ فقد تضمنت بعض الحشو والزخرف ، مما يثقل بناءها بلا مناسبة — وشكراً للسماء ، وشكراً للمؤلف ، فإن كل مناظر « كاتون » الألمانية تحدث في قصر واحد وفي بهو واحد ، ومدة المسرحية « تبتدىء ظهراً وتنتهى مع غروب الشمس . »

وإنه لشيء غريب حقاً ، أن رجلاً مثل فولتير — عندما يكتب مسرحيات أو ينظم قصائد — يخرج عن عبقريته الخاصة ، دون أن يستشعر معاصروه ذلك ، ودون أن يستشعره هو نفسه ؛ إذ يريد أن يقلد كورنيل وراسين أو بوالو . إننا لنشعر بشيء من الحزن إذ نرى منذ ذلك العهد — ودون أن ننتظر أن تتقوى « الكلاسيكية الكاذبة » خلال فترة أطول بما رأت أي مدرسة حديثة —

هذه الكتلة المهوشة من القصص الخالية من الروح ، والمسرحيات الخالية من الحقيقة والأشعار الخالية من الشعر . قوة بلا روح . . . هذا هو ثمن الجرائل التي قدسها المذهب الكلاسيكي للعالم . لأن الكلاسيكيين الفرنسيين وصلوا إلى درجة سامية من الكمال ، الذي فتن عقول خلفائهم ، حتى إنهم ظنوا أنه لا وسيلة إلا أن يقلدوهم ؛ ولأن كتاب الصنف الثاني - وقد يسارعون إلى السهل - يحبون أن يكرروا مالقى النجاح مرة ؛ ولأن الروح الهندسي قد قضى على حب الأشكال المرنة والألوان الحية ؛ ولأن العقل المسيطر لم يعد يحتتمل «أزهار» البلاغة إذا لم تكن سوى أزهاراً ؛ لقد ذوت القوات الغنائية ؛ ووقعت العبقرية الشعرية في سبات عميق .

## الفصل الثاني

### بهجة الحياة

سادامت هذه الحقول من الأزهار الاصطناعية لا أمل فيها ولا حتى سراب ،  
فلنبحث في غيرها . . .

إن السيد سبكتاتور يوصى قراءه بالتزام الحكمة والاعتدال : ولكنه ،  
يتوقف في أثناء إرشاداته ، ليشيد بمتع الخيال ، وليؤكد أن المتعة التي يهيئها  
لنا البصر ، لا تقل عن التي يهيئها الذكاء ، بل ليبدى إعجابه بمفارقات  
شكسبير النبيلة : يروق الفضلاء أن يقتربوا من الينابيع *Juvat integros*  
*accedere fontes* . ويوصى علماء إيطاليا باطاعة القواعد : ولكنهم في  
الوقت نفسه يحتفظون بمزايا وحقوق بعض الهوى المبدع : حتى رأى الناس  
فيهم — بشيء من السماحة لا يخلو من الاسراف — أسلاف الرومانتيكيين .  
يا للتناقض الظريف ! دعوا الفرنسيين يعملوا ، إنهم في سبيل إخضاع كل شيء  
للفرجار : اللهم إلا إذا أتت الجنيات تهوش ، في لعبها ، رسوهم الهندسية .  
كانت نهاية القرن رزينة ، حزينة ، لتأثرها بالشعور الذي يسود عند اضمحلال  
العهود العظيمة ؛ لقد خلفت المؤلفات الرائجة كتب النقد ، وعلى حين غرة  
تخييل ماذا يطلب المبدع ؟ وأي كتب تعرض في واجهات المكتبات ؟ حكايات  
الجن .

إن معاصري لويس الرابع عشر المسن ، ومدام دي سانتون العاقلة  
المتديئة ، يستلطفون الحكايات التي تقصها « أسنا الاوزة » للأطفال . نستطيع  
أن نقبل أن ديكارت لم ينبذ نهائياً ، وأن قرعة مذهبة تستحيل إلى عربية  
مذهبة ، والعظايات (السحالي) إلى خدم ذوى أردية مزخرفة ، والفئران ذوات  
الشوارب إلى سواق ذوى شوارب ؛ وبذا نكون قد احتفظنا إلى حد ما بالنسب  
المعقولة التي يعزها الشعب الفرنسي . ولكن أى مجافاة للمنطق ! إن قصوراً

فاخرة تنكشف فجأة ، قصوراً لا ترى فيها إلا الذهب والياقوت ، ويغطي أبوابها العقيق ، وعليك لكي تلجها أن تشد رجل جدى معلقة في سلسلة من الماس . الحيوانات تتكلم ؛ فالوعلة التي ترعى في الغابة ، والهرة التي تأوى إلى ركنها ، هن نساء مسحورات ؛ والطيور الزرق أسراء فانتون . لا ترى إلا أعاجيب ، وزهوراً ، ومجوهرات ، وزينة خارقة للعادة : قطعة من قماش طولها . . . ٤ متر تطوى في حبة صغيرة من الذرة البيضاء ، وإذا بسطت تنفذ من سم خياط ؛ عليها رسم كل حيوان الأرض والبحر والسماء ، مع القمر والشمس والنجوم . والناس يمتطون جياداً من خشب ، تعدو مطلقاً العنان ، وتقفز أحسن مما تقفز خيول الأكاديمية ، ويتجولون في مركبة يشدها خروف سمين خبير بكل الطرق ، أو في زحافة صغيرة مذهبة ، يجرها أيلان في سرعة إعجازية ، أو في كرسى طائر تجره ضفادع مجنحة ، أو في عجلات نارية تقودها التنانين في الجوزاء — ولم نعد نعرف قوانين الدنيا التي تجد بعض القوى السحرية متعة في قلبها ، فالأجسام تفقد أوزانها ، والأحلام تتحقق ، والفضيلة تنال ثوابها ، والرذيلة تلقى عقابها . وإذا نحن نحلينا عن هذه الحكايات العجيبة ، نجد الحياة من الكآبة والفتور ، بحيث يصبح العيش عناء .

وكانت النساء سباقات إلى جمع هذه الحكايات ، الصادرة من أغوار الزمان والتي توغل في قدسها حتى لتتعدر معرفة أصلها ؛ هذه الاختلاجات للنفس البدائية ، التي لم تر في الخليقة كلها ، في الريح وفي الليل ، في الربيع وفي الشتاء ، إلا سحراً في سحر . نساء هن حارسات الخيال ، لأنهن أقوى غريزة ، وأكثر حساسية لماضى البشر . ثم أتى شارل بيرو ، ناظر الأملاك الأميرية السابق ، الذي تناول بعض أجنحة القراش وأولاد العذراء وأشعة القمر ، وبنى بها حكاياته عن الجن ، تلك التحف الرقيقة الخالدة . كانت الحسناء تغفو في الغابة ، وتوقفت كل حركة ، حتى الأحلام ؛ وكفت العفاريات عن طوها ، والنزوات عن عبثها ، وخيم الحزن الكئيب على فرساي وعلى المدينة وعلى البلاط ؛ ثم ضربة عضا ، وإذا بكل شيء يفيق ، فيهرول الطهارة ، ويتواشب الخدم ، وتسهل الخيول ، وتتناجى طيور الغابة على الغصون ، فتستيقظ الأميرة ، ثم تبسم وتعاتب الأمير على تأخره في الحضور ، وتخبره أنها انتظرتة طويلاً .



أولئك الذين قاموا بالرحلات الحقيقية لم يأتوا لنا بكل مانحة اليوم ؛  
إنهم لم ينقلوا « إنيتهم » إلى الجهات النائية ليعرفوا ماذا يصيبها ، وليشعروا  
بأثر هبوب الرياح المجهولة عليها . ومع ذلك فنحن لم نقل كل شئ إذا لم نتحدث  
إلا عن أفكارهم . هل كانوا عقولا خالصة ؟ ألم تبدأ عيونهم تفتتح أمام  
بهجة الدنيا ؟ ألم يقدموا لقرن قد تشبع بالذكاء ، صوراً تغريه ؟  
لقد ظهرت في أوروبا نفسها ، أراض عجيبه ، كما لو كانت جزرا جديدة  
في وسط محيط مألوف . تلك هي لابلاندة التي كانت تتبدى رويداً رويداً من  
خلال الظلام الكثيف . يقول الرحالة فرانسو برنييه إن اللابلانديين قوم  
غرباء ، فطس الأنوف ، « قصيرو القامة ، أقوياء السيقان ، عريضو الأكتاف ،  
قصيرو العنق ، طوال الوجوه بشعو الخلقه كالدبية ، يشربون زيت السمك  
في جنون . . . » بلاد عجيبه ، حيث لا تغرب الشمس صيفا ولا تشرق شتاء ،  
حيث تحمل الرنة محل الحصان ، حيث يتزلق الناس على ألواح مشدودة إلى  
الأقدام ، حيث ينتاب السحرة رعب شديد لقاء « نعم » أو « لا » . إنها تبلغ  
من الغرابة بحيث ينقل عنها السياح « وصفاً لدنيا جديدة أكثر منه رواية عن  
شطر من قارتنا . . . » .

وما أغرب ما لم يزل يرد من ولايات المغرب من روايات ، ومغامرات بحرية ،  
وحوادث أسر ، وهروب ونجاة ، وفرقة أحباب وسلافة ، وشهداء وعصاة ،  
وباشوات وانكشارية ، وغادات يذرفن الدموع ، أسيرات في القصور ، وأجانب  
يشفقون على دسوعهن ، وحراس يراقبون سجناء ينحنون على الجاذيف ، ومبعوثين  
يحضرون معهم بكل عناء ، فديات ضخمة بالعملة الاسبانية أو الفرنسية . تلك  
الروايات التي لم يكف الناس عن تكرارها وتوشيتها ، كانت تحظى دائماً  
بالاعجاب . خواتم الكوسيديات ، مغامرات قصص الحب ، ووقائع حقيقية  
أكثر روائية من الروايات .

وقد ورد من أورشليم ، بيت المقدس ، مرة على الأقل ، أنين شاعري أليم .  
أيا أورشليم ! أيتها المدينة التعسة ! يا مدينة القبور ! إن الهياكل العظمية ،

والعظام المنفصلة ، العظام المحطمة التي نراها في المقابر توحى بأفكار منفعلة ،  
تمدت في « تأملات » :

*Is this, alas! our boasted mortal State?  
Is it fort this, we covet to be great?  
What Happiness from envied Grandeur springs,  
When these poor Reliques once were mighty kings?  
O frail uncertainty of human Power,  
While Graves can Majesty itself devour! (١)*

إن الذى يئن هذا الأئين ، ليس يونج في « لياليه » ، وليس هيرفي  
في « مقابره » ، بل هو آرون هل الرومانتيكى ، آرون هل ، السائح في الأرض  
القدسة .

لو أن لويس الرابع عشر قرأ الرسائل التي كان يرسلها الأب بريمار  
من كانتون إلى الأب لاشيز ، لخالجه الريب في وجود أسماخ أغرب مما كان  
مصوراً في لوحات الهولانديين . كانتون ؛ أى بلد غريب ! تخيل الأزقة  
الضيقة ، التي تعج بشعب يأكله : ترى جمالين حفاة الأقدام ، يغطون رؤوسهم  
بقبعة من القش ، تقيهم المطر والشمس معاً ؛ ومقاعد غريبة بدلا من العربة ،  
والأب بريمار نفسه يتنزه في مقعد ضخم مذهب ، يحمله ستة رجال أو ثمانية  
على أكتافهم ؛ وحرساً محارباً ، لأن سونج - تو ، أعنى حاكم ولايتين ، لا يخرج  
أبداً إلا وترافقه حاشية من مائة شخص على الأقل . . . « يخيّل إلى أن كل  
ماقلته لك هنا ، يعطيك فكرة عن مدينة حديثة ، لا تمت بصلة إلى باريس .  
وحتى لو نظرنا إلى البيوت وحدها ، فأى أثر تترك فينا شوارع يأكلها لا ترى  
فيها أى نافذة ، بل كلها حوانيت ، معظمها فقير ، مدخلها سياج بسيط من  
القصب بدلا من الباب ؟ . . . (٢) » أضف إلى ذلك المعابد pagodes التي

(١) أهذه إذن ، وآسفاه ، حالتنا الفالية التي نباهى بها ؟ - أمن أجل ذلك نبتغى  
العبالي ؟ - أى سعادة إذن في المعالي المشتهة - بينما هذه الاشلاء التبعة كانت  
يوما ملوكا عظماء ؟ - بالقدرة البشرية الضعيفة التي لا أمان فيها - ما دام القبر  
قادرا على التهام العظمة نفسها !

(٢) رسالة من الأب دى بريمار إلى الأب لاشيز . في كانتون ١٧ فبراير ١٦٩٩ .  
(رسائل غريبة مرسله من البعثات الأجنبية ، الجزء الأول ، ١٧٠٣ ) .

يقوم على خدمتها رهبان بوذا ، وبوابات الشوارع التي تغلق في آخر النهار ، وعلى النهر مدينة بأكلها عائمة ، وقوارب تقطن كل واحد منها أسرة ؛ ومزارع الأرز في الريف . . .

ومن بلاد الهند الغربية ، من « الجزر » ، وصلت صورة المغامرة ذاتها ، صورة أخطر المغامرين على الأرض أو المياه . كانت قيادتهم العامة في جزيرة « السلاحفة » على مقربة من « سان دمنجو » : عصابة من الأشرار desperados من كل بلد ومن كل جنس ، يعيشون في ظل قانون لشرف يخصهم وحدهم ، شرف ينفردون به دون بقية البشر . إنهم القراصنة : طائفة البوكانيين ، Boucaniers وطائفة الفليبوستيه Flibustiers . الأولون يصيدون الثيران من أجل جلودها ، والخنازير البرية من أجل لحومها . ويتعقبون طريقتهم وقد حملوا البنادق الطويلة المصنوعة خصيصاً لهم في ديب أو نانت ، تتبعهم كلاب الصيد ، ويساعدتهم الخدم الذين يتعهدون بالخدمة لمدة ثلاث سنوات ، يصبحون بعدها رفاقاً لهم إذا توافرت فيهم القوة والشجاعة : فاذا قتلوا حيواناً ، استخراج الزعيم العظام الأربعة الكبيرة ، وكسرها ثم امتص نخاعها الدافئ : ذلك هو إفطاره . وإنهم لمن المهارة في التصويب حتى إنهم ، على سبيل التسلية ، يقطعون عنق البرتقالة دون أن تمس القذيفة الفاكهة ؛ وبعضهم من الخفة بحيث ياحقون الثور في عدوه ويقطعون فخذه . في خلقهم الجفوة والقسوة و، الشراسة ، والوحشية ، وهم على استعداد دائم لاراقة الدماء ، ولكنهم شجعان بين الشجعان ، بهم حساسية عجيبة للصدقة .

أما الطائفة الثانية ( الفليبوستيه ) فهم صيادو البحار . إنهم يلقون بأنفسهم على أمواج المحيط ، يطاردون السفن الكبيرة ، وعلى الأخص الإسبانية ، التي تملأ مشحونة بذهب بلاد الهند ، ويهجمون ، ويغتالون البحارة ، فتصبح السفينة لهم ؛ ومن عراك إلى عراك ، ومن نصر إلى نصر ، يجمعون الغنائم : إلى أن يرسوا في ميناء ذات يوم حيث ينفقون ما لهم في جنون ، مثل أولئك الذين أسروا ، عند وصولهم إلى بوردو ، بعد حصولهم على غنائم هائلة ، يحملهم على مقاعد ، تحف بهم المشاعل ، في وضح النهار .

وأولئك القراصنة بما أوتوا من شجاعة ووحشية ، يصلون إلى ذروة الفروسية . منهم من يدعى أسكندر الملقب بالذراع الحديدية لقوة ريسغه ، « الذي سجل

اسمه بين المغامرين بقدر ما سجل الاسكندر القديم اسمه بين الفاتحين « ؛ ومنهم بطرس الأكبر ، من أهل ديبب ؛ وروك ، الملقب بالبرازيلي من أهل جروننج ؛ ومورجان الغالى ؛ والربان مونتوبان ، الذى جال عشرين عاما حول شواطئ إسبانيا الجديدة وقرطاجنة والمكسيك وفلوريدا ويورك الجديدة وجزر الكنار والرأس الأخضر . ورابط القرصان « لولونوا » ، من سكان بوانو ، بسفينته أمام كوبا ، على رأس واحد وعشرين رجلا ؛ واستولى على السفينة التى كلفت بمطاردته ، وعندئذ علم أن الحاكم الاسبانى قد أعد على ظهر هذه السفينة جلاداً خصيصاً لشنق القراصنة . « وعصف بلولونوا الغضب عندما سمع بكلمتى الجلاد والشنق ، وعندئذ أمر الاسبان من خلال كوة سطح السفينة بالصعود فرادى ؛ حتى إذا صعدوا أطاح رءوسهم بسيفه . ولقد أتم هذه المجزرة وحده حتى آخر إسباني . « ولقد استولى لولونوا على مكارايبو وجبل طارق فى ولاية فنزويلا . « ولما جمع كل شئ » ، وجد أنه بتعداد الحلى ، والنقود ، بحسبان الجنيه عشرة « أيكوسات » ، كان لديه مائتان وستون ألف إيكوس ، بخلاف الغنائم الأخرى التى كانت تساوى مائة ألف على الأقل ؛ غير ما سبب من تلف يفوق المليون إيكوس ، من كنائس مخربة ، وأثاثات مدمرة ، وسفن محرقة ، منها واحدة مشحونة بالطباق ، استولى عليها ، ولا تقل قيمتها عن مائة ألف جنيه . « وكانت نهاية لولونوا مشئومة : « كان من سوء حظها أن وقع فى يد الوحوش الذين يسميهم الاسبان الهنود الشجعان Indios bravos ، قطعوه إربا إربا وشووه على النار وأكلوه (١) . »

وكانت تصل من الشرق أروع الحكايات ؛ ذلك « أننا نعلم أن الشرقيين يفوقون كل الشعوب الأخرى فى ناحية الأعاجيب » . نشر أنطون جالاند من عام ١٧٠٤ إلى ١٧١١ ترجمته لألف ليلة وليلة . لما بدأت شهر زاد تحكى رواياتها الليلية ، وتبدى ، بلا كلل ، موارد خيالها التى لا تغيض ، وقد تغذى بأحلام بلاد العرب وسوريا والشرق الأدنى العريض ؛ ولما أخذت تصف أخلاق الشرقيين وعاداتهم ، ومراسم دينهم ، وتقاليدهم البيتية ، تلك الحياة

(١) ا.و. أو كسميلين ، القرصان فى أمريكا ، امستردام ١٦٧٨ . ترجمة فرنسية ١٦٨٦ .

A. O. Exmelin, *De Americansche Zee-Rovers*, Amsterdam, 1678.

الساطعة المتعددة الألوان ؛ ولما بينت كيف يمكن اجتذاب الناس وافتتانهم ، لا بالاستدلال المنطقي ، بل بنضرة الألوان وسحر الأقاصيص : حينئذ تحرقت أوروبا كلها للاستماع إليها ، حينئذ احتلت السلطانات والوزراء ، والدرأويش ، والأطباء اليونانيون ، والرقيق السود — مكان الجنية « كارابوس » والجنية « أورورا » ؛ حينئذ احتلت فنون العمارة الرقيقة الهوائية ، والنافورات ، وأحواض الاستحمام التي تحرسها أسود من ذهب مصبوب ، والأهباء الواسعة المزينة بالخرائر وأقمشة مكة — مكان القصور حيث كان « الوحش » ينتظر استيقاظ « الحسناء » للعشيق (١) ؛ حينئذ خلفت بدعة ، بدعة أخرى : ولكن الأمر الذي لم يتغير هو ما يتطلبه الانسان ، الذي يريد قصصاً تلو قصص وأحلاماً تلو أحلام ، إلى الأبد . . .

صور . . . إن السياح يزينون رواياتهم بالرسوم والنقوش ، معابد الصين ، والأفاعى أو قنن الجبال المستديرة أو كهنة سيام « الطالابوان » ، والنباتات العجيبة التي تثبت في حدائق مالابار . ونقش الأب بوفيه لوحات تبين للفرنسيين ، المندهبين ، ثياب موظفى الصين ؛ وأوصى السيد دى فريول وزير البلاط الفرنسى لدى السلطان الأعظم ، على مجموعة من مائة طابع ، ليبين لسكان باريس ثياب الشرق الفاخرة . ويقدم البعض للقارى منظر ولوحات ، مستغلين تلك النماذج الأجنبية : همجى يقدم مشعلا لسيدته فى فراشها ؛ كشافون يدخلون هرما مصرىا حيث تلقى مشاعلهم أنواراً غريبة على المدافن التي تطاول الدهر فى القدم . كثيرا ما تبدو تلك الرسوم مليئة بالفتنة ، تلك الرسوم التي ترد من القصى البعيد ، من المجهول ؛ وكأما تعيد جدتها للفنانين الحيوية التي فقدوها من كثرة تقليدهم للنماذج القديمة . وأحيانا كان السائح نفسه ينقلب إلى رسام ، لعلمه بأنه سيكون أقوى تأثيراً على العقول ، بتمثيل الأشكال المباشر ، مما إذا التجأ إلى الكلمات والجمل : إن كورنليوس فان برون يقف أمام نماذجه ، واعيا ، جادا كأنه يقوم بواجب مقدس : إنه سيعوث الحقيقة .

ولكن هل يتعلق الأمر بالكتب فحسب ؟ إن الزوار مختلفى الألوان ،

(١) الحسناء والوحش : قصة كتبها مدام لو پرائس دى بومو . اضطر تاجر أن يسلم إحدى بناته لوحش نحيف . لكنه أحب الفتاة التي أحبته بدورها لطيفة قلبه . وجعله هذا الحب يستعيد أصله النبيل ، كامير ، ويتزوجان . [ المترجمان ]

القادمين من الجزر ، ومن بنجكوك ، ومن بكين يعمرون الأفق المألوف . وأقمشة الفلاندر المزركشة تتخذ أرجاء المعمورة الأربعة موضوعا لها ؛ والصينيون الذين مثلهم الناس في الأوبرا وفي مسارح الأسواق من قبل ، قد سجلت رسوماتهم الآن على السجف والجدران . والأواني الصينية وأطلبتها الزاهية ، لا تتأخر في وصولها عن أفكار كوندوشيووس .

سبينوزا ، مالبرانش ، ليبنتز : ولكن أيضاً اسكندر ذو الذراع الحديدية وشهر زاد . النظريات الميتافيزيقية الكبرى ، المستندة على العقل ؛ ولكن أيضاً الخيال الذي يتسكع في قصص الجن والسحر ، والعين التي تحلم في وجل وهي تنظر إلى وحيد القرن وجاسوس البحر . كل هذا الجهد العظيم لتفسير الدنيا ، في الأعماق ؛ وعلى السطح تلك اللمعات والألعايب .

\* \* \*

أما « الطبيعة العلة » ، و « الرؤية عن طريق الله » ( ١ ) ، فان طائفة كبيرة من المرشحين الأفاقين السكارى النشالين تهتم بها اهتمام السمكة بالتفاحة ؛ بل قل إن « الاتساق المقدر » ( ٢ ) الوحيد الذي يهتم أولئك الأشرار هو الاتساق الذي يشعرون به بين حلقهم والنبذ الجيد . إنهم يواصلون طريقهم دون أن يتساءلوا من أين يأتون ودون أن يعرفوا إلى أين ينتهي بهم الطريق ؛ فما جدوى ذلك ؟ المهم هو الحياة ، فكلب حتى خير من فيلسوف سميت . الواقع الملموس : ذلك هو ميدانهم . وهم يجولون فيه بكل مرح ، مصفرين ، مغنين ، مفرطين في الطعام والشراب ، منتفعين من الحمقى والبلهاء ، سعداء بالحياة ؛ لا يبهون بالموت ولا بالآخرة .

لا بد من أن طراز الصعلوك ، الفاجر ، النشال ، يتضمن في ذاته شيئاً من الحقيقة السيكلوجية ، أو قيمة رمزية ، أو آية من القوة المسلية ، مادام

( ١ ) الطبيعة العلة Nature Naturente : في فلسفة اسبينوزا يطلق هذا التعبير على الطبيعة التي تعد علة لطواهرها . الرؤية عن طريق الله Vision en Dieu : نظرية مالبرانش المشهورة وقد سبق الكلام عنها في فصل « العقليين » القسم الثاني . [ المترجمان ]  
 ( ٢ ) الاتساق المقدر : l'Harmonie préétablie : نظرية فلسفية لليبنتز سنتكلم عنها في فصل « ميتافيزيقا الجوهر » من القسم الرابع . [ المترجمان ]

لا يكف عن افتتان الأجيال وإن اتخذ صوراً مختلفة . إيه يا « بيكارو » (١) الخالد ! إن أبناء وأحفاد « جوزمان دالفاراش » (٢) و « لازاريلو دي توريس » لازالوا يذرعون الدنيا ، كتفا إلى كتف ، مع نسل « بانورج » (٣) ابن عمهم الانجليزي . لكن جماعتهم التي لا تكل قد ازدادت بامدادات جديدة . في لندن يترك ندوارد Nedward حانته ، وقد كان جالساً قبل ذلك مع لفيف من أخصائه ، وأمامه أوزتان مشويتان ، ورأس عجل ، وقطعة ضخمة من جبن تشستر : كل هذا قد سقى بعدد كبير من كؤوس الجعة ، كبداية ، ثم من كؤوس « البورتو » في النهاية . وعند خروجه من الحانة ، يصادف في طريقه لوك ، صامويل كلارك ، بويل ، أو نيوتون ، ثم يتجول خلال الشوارع والميادين ، ويلج حانات أخرى ، وسنازل وكنائس ومصارف ومتاحف ، وكل مكان يمكن للمرء أن يقابل فيه نماذج ظريفة لهذا الجنس الغريب ، الذي يدعى البشرية . حينئذ أخذ يصفهم في لهجة قاسية ، وصور أسرة وأسلوب ممتع : يبدو كأنه لا يفرغ ، يفيض بالدعاية والسخرية ، ويجعل من كل فصل من كتابه « جاسوس لندن » *Espion de Londres* ملهاة واقعية : واقعية ومرحة ، تلك هي الآلية التي كان يأتي بها ويجدها كل يوم . وكان على مقربة منه توم براون البوهيمي بين البوهيميين ، الساخر بين الساخرين ، المستعد دائماً لأن يؤجر قلمه ، وأن ينفق ما كسبه بفضله ، يراقب من جهته هوس المدينة الكبيرة . وبعده ؟ هل الحياة إلا التسلية ؟ البعض يتسلى بالطموح ، والبعض يتسلى بالمنفعة ، والآخر بتلك العاطفة السخيفة ، الحب . الصغار يتسلون بالمتع الصغيرة ، والعظام يتسلون باكتساب المجد : وأنا أتسلى بالتفكير في أن كل هذا لا شيء ، لا شيء إلا تسلية . . .

هكذا تكلم هذا العالم الأخلاقي الغريب ، الذي مات في الواحدة والأربعين من عمره ، بعد أن شمل وأحب ، واستدان ، وتعدى رقاده في السجن رصيده .

(١) شخصية مألوفة في القصة الإسبانية تدل على الأشقياء . [الترجمان]

(٢) شخصية من رواية إسبانية في القرن السادس عشر . [الترجمان]

(٣) شخصية معروفة من رواية « بانتاجرويل » *Pantagruel* للكاتب الفرنسي رابليه

وفي تلك الأثناء كان « الشيطان الأعرج » (١) يتسلى بين باريس ومدريد بنفس الطريقة : ولكنه كان يؤثر أن يرفع سقف المنازل — بدلا من أن يلجها من الأبواب — ليكتشف أناساً يعادون الميتافيزيقا ، والبطولة ، وينغمسون في غمار المادة ولا يعتقدون أن في ذلك ضرراً لهم أو سوءا ، أو على الأصح لا يفكرون في شيء : إنهم قانعون بالوجود . « صورة لما تتكلفه مخلوقات التعسة الفانية من عناية وحركة ومشقة ، لتلا — على أفضل صورة في مقدورها — تلك الفترة القصيرة بين حياتها وموتها . » (٢) لا أفضل ولا أكثر ؛ ولا أى سؤال فيما يتعلق بالحقائق الساسية ، بل حتى فيما يبدو ، لا قلق على الاطلاق ، ولا أى حب استطلاع . الحقيقة الواقعية هنا ، هى قبج النفوس والأجساد ؛ يكفى أن تزيل قليلا قشور المظاهر لتجدها ، ولا تجد سواها . « إنى أرى فى المنزل المجاور لوحتين ممتعتين ، إحداهما لغانية عبثت الأيام بشبابها ، تخلع قبل النوم شعرها ، وحاجبها وأسنانها وتتركها على منضدة لزينة ؛ والأخرى لشيخ متصاب فى الستين من عمره ، عائد من سويد غرام . وقد خلع عينه وشاربه الصناعى ، مع شعره المستعار الذى كان يخفى رأساً أصلع . وهو ينتظر أن يخلع له خادمه ذراعه وساقه الخشبيتين ، لى يذهب إلى فراشه مع ما تبقى . » إذن ، هل الجبال لا وجود له ؟ ألا رجاء لنا فى أن نجده ؟ يقول زامبولو : « إذا صدقت عيني ، أرى فى هذا المنزل فتاة رائعة القوام ، تستحق التصوير — ويرد الأعرج : « حسنا ، إن هذه الفتاة الجميلة التى تفتتك هى الأخت الكبيرة لذلك الشيخ المتصابى الذى يوشك أن ينام . يمكن القول بأنها زميلة هذه الغانية العجوز التى تقيم معها . إن قواصمها الذى يحظى باعجابك لآلة استنفدت كل الفن الميكانيكى . إن عنقها وفخذها اصطناعيان . . . ومع ذلك فإن تصابيحها أوقع عاشقين شابين فى منافسة من أجل مفاتيحها ، حتى نشب بينهما عراك من أجلها . يا لجنونهما ! يخيل إلى أنى أرى كابين يقتتلان من أجل عظمة . » إن كتاب « الشيطان الأعرج » يخلو من الأفكار ، بل يتضمن رأيا مبتسراً من خيال سقيم أو أسود . إن ليساج سيصل إلى أوج الكمال فى مؤلفه « جيل

(١) كتاب ألفه ليساج Lesage ، واسم هذا الشيطان أزموديه Asmodeé . [ المترجمان ]

(٢) آلان رينيه ليساج ، الشيطان الأعرج ، ١٧٠٧ .

بلاس « - *Gil Blas* الذى ظهر القسم الأول منه فى عام ١٧١٥ : حيث يبدو البطل أرق حاشية ، وأوفر فطنة ، وأكثر تركيباً ؛ وحيث يبدو المؤلف أكثر تعمقاً فى دراسته ، والأسلوب أكثر سلاسة وطبيعية : ومع ذلك لازلنا على سبعة من التراجم المينافيزيقية .

\* \* \*

وأخيراً ، هاك نبلاء حسنى المظهر ، يقفون فى مؤخرة الصفوف ، كأنما يجلبهم التحاقهم بهذه الفرقة ، ولكن فيهم نقصا هو عدم الاهتمام بالمسألة الأخلاقية ، أو التفكير فى شأنها فى وقت متأخر ، حتى ليكن أن نقول عنهم ما قاله صاحب الفندق فى «إسبين» عن مانون ليسكو وعشيقها دى جريو : إنهما ظريفان ، ولكنهما أفاقان إلى حد ما . فأولئك النبلاء لا يعيشون إلا للمغامرة ، والرحلات ، والمقامرة والعشق ؛ تستهويهم الخيلة والاختلاس اللطيف ، والجرأة ، وضربات السيف التى يسرفون فى توزيعها والتى أحيانا يتلفونها : ولكنهم لا يموتون أبداً . يعالجون جراحهم ، ويلتزمون فراشهم : وبعد ثمانية أيام يغادرون الفراش ، ويبدأون من جديد حياتهم الصاخبة الناهكة ، والتى تدير أقل رواية عنها رءوس البورجوازيين الهادئين . يمكن تسمية كل منهم بنفس اللقب الذى خلعه جاسيان دى كورتيلز على أحد أبطاله ، والذى أطلق فى الدنيا عدداً وافراً من الأشقياء *Picaros* المتسكرين فى ثياب النبلاء ؛ يمكن تسمية كل منهم «شفاليه هازار» . أى حياة ! أى نسق جنونى ! «لم يعرف الشفاليه هازار أبداً أباً ولا أمّاً ؛ لقد وجد فى لفة على عتبة كنيسة وتربى على حساب الكنيسة ، ويترك مربيه ليحرب حظه فى جهة أخرى ؛ وتلدقه سيدة نبيلة ليتمرن فى حانوت صائغ ؛ ويهرب من معلمه لينضم إلى الجيش ؛ ويلتحق بالقوات البحرية للورد (س.ت) ؛ وتغرق السفينة التى يعمل بها ؛ وينقذ نفسه بمعجزة مع أحد البحارة ؛ ويبحر إلى بوسطون ؛ حيث يقتل صديقه فى عراك مقامرة ، ويأخذ بثأر صديقه وإن كان هذا يضر بحبه لعشيقته ؛ ويتهم بأنه حمل فتاة سفاحا ، ويوشك على الزواج بفتاة أخرى ؛ ويهاجم البعض فى الطريق ويصاب بطلق نارى ، ويصبح جرحه خطيراً ؛ وفى تلك الأثناء تقام العراويل فى طريق زواجه ؛ تريد الفتاة

الحامل أن تتزوجه ، وترفع عليه دعوى ؛ ويريد شقيقتها أن يغتاله ، ويهاجم سرة أخرى ؛ ويصاب بأربعة جراح ؛ ويعبد شقائه ، تصاب عشيقته بالجدرى ثم تموت . . . (١) . إذا كان هذا الرجل المضطرب المسكين ، مشغولا إلى هذا الحد ، وعلى هذا النوال ، فكيف يجد وقتا للتفكير ؟

وأكثر أولئك المغامرين المشاهير جاذبية ، ليس المركيز دي مونبران ، ولا الشفالييه دي روهان ، الأمير العاشر الحظ ، ولا حتى دارتانيان الذى قدر له مستقبل يمثل هذا الجمال ، بعد ما نام مائة وخمسين عاما ؛ بل هو الكونت دي جراسون الذى وجد أنطونى هاملتون متعة فى نشر حياته (٢) . من ذا الذى لا يعرف هذه الصورة الساطعة ، التى أهداها إنجليزى إلى الأدب الفرنسى ؟ من ذا الذى لم يتابع الكونت دي جراسون فى سنوات تمرينه ، وفى حملاته فى ييمونت ، وفى إقامته فى البلاط الانجليزى الذى أصبح قدوة سيئة فيه ؟ من ذا الذى لم يبتسم لتلك الذكريات الظرفية ، لصورة زميله ماتا ، لصورة الأنسة دي سان جرمان ، أو المركيزة دي سينانت ؟ من ذا الذى لم يعجب بما فى القصة من حرية ، وبهجة ، ودسامة ، وقوة ، ودعابة ؟ فلندع هاملتون نفسه يقول لنا كيف اهتم بالشخصيات لا بالأخلاق ؛ بالنواحي البارزة لا بالخير والشر ؛ بالحياة لا بالتفلسف : — « إن الموضوع هو وصف رجل تغطى شخصيته التى لا نظير لها على نقائص لا نزعم إخفاءها ؛ رجل يشتهر بمزاج من الرذائل والفضائل التى يبدو أنها تندعم فى تسلسل لازم ، فريدة فى توافقها التام ، ساطعة فى تعارضها . إن هذا الجانب البارز الذى لا يفهم ، هو الذى جعل الكونت دي جراسون — فى الحرب ، والغرام ، والمغامرة ، وفى مختلف ظروف حياة طويلة — موضع إعجاب عصره . . . » . النشاط الحيوى ؛ ذلك فى الحقى ، مامثله جراسون فى شخصه ، وما ترجم هاملتون عنه . إنه لمن السذاجة أن نتعجب أمام ذلك المشهد البهيج من هرج الناس ومرجهم ، الذى ينعكس فى الأدب . لكننا كنا قد نسيناه ، إذ لم نتطلع إلا إلى حالى .

(١) مذكرات الشيفالييه هازار ، مترجمة عن النسخة الانجليزية الأصلية ، فى كولونيا ، عند بيير لوسانسير ، ١٧٠٣ .

(٢) مذكرات حياة الكونت دي جراسون ، تتضمن على الأخص التاريخ الغرامى للبلاط الانجليزى فى عهد شارل الثانى ، كولونيا ، بيير مارتو ، ١٧١٣ .

## الفصل الثالث

# الضحك والدموع وانتصار الأوبرا

*Je chante les combats, et ce prélat terrible  
Qui, par ses longs travaux et sa force invincible,  
Dans une illustre église exerçant son grand cœur,  
Fit placer à la fin un lutrin dans le chœur ... (١)*

اختيار موضوع تافه ونظمه على طريقة الملحمة ، بدلا من ترجمة «أناييد» فرجيل *Énéide* في أسلوب هزلي ؛ وصف النزاع والكفاح بين أسين صندوق كنيسة وخصمه المرتل ؛ إضفاء مظهر هزلي على المحسنات الضرورية في القصائد الكبرى ، من وصف ، وعراك ، وقتال ، وتنبؤ ، وأحلام : هل هذا حقا يثير الضحك ؟

ومع ذلك ، فكثيراً ما أضحكنا شعر «المقرأ» *Le Lutrin* عندما كنا في المدرسة ، ولم يكن لنا غذاء آخر ؛ ولقد أضحك أوروبا قبل زمننا بمائتي عام ، ولم تكن قد ملت بعد ، أوروبا الكلاسيكية ، أوروبا الأفاضل . صفوة أوروبا كلها ، مادام ليس هناك بلد لم يلق فيه الاعجاب هذا المؤلف الممتع لسيد بوالو — الهجاء الكبير — ، ولم يترجم ولم يقلد ؛ ومادام واحد من خيرة أطباء لندن — صامويل جارت — لم يجد المجد الشعري إلا في إعادة الموضوع نفسه ، أى بتحويل «المقرأ» إلى «الصيدلية» ، باستبدال الأطباء بالرهبان ، والصيدالة بالمرتلين ، وما يتبعهم من محاقن ومدقات وهاونات :

(١) أترنم بالمعارك ، وبهذا القسيس الغريب — الذي كان يرتل بقلبه في كنيسة مشهورة — والذي نجح بعد جهد كبير وبقوته التي لا تغلب — في وضع المقرأ بين جوقة المرتلين . . .

( شعر هزلي كتبه بوالو يصف فيه نزاعاً بين أسين صندوق ومرتل في كنيسة واسم هذه القصيدة الهزلية «المقرأ» *Lutrin* . [ المترجمان ]

*Muse, raconte-moi les débats salutaires  
Des médecins de Londres et des apothicaires  
Contre le genre humain si longtemps réunis :  
Quel Dieu, pour nous sauver, les rendit ennemis?  
Comment laissèrent-ils respirer leurs malades,  
Pour frapper à grands coups sur leurs chers camarades?  
Comment changèrent-ils leur coiffure en armet,  
La seringue en canon, la pilule en boulet?  
Ils connurent la gloire : acharnés l'un sur l'autre,  
Ils prodiguaient leur vie et nous laissaient la nôtre ... (١)*

وبالمثل : اتخاذ بعض أشعار ملتون كعنوان ، وجعلها تنتهي إلى سقطلة  
مضحكة :

*Sing, Heavenly Muse,  
Things unattempted yet in Prose or Rhyme,  
A shilling ... (٢)*

أما وقد أضعفنا هذه النعمة ، وتغنيينا في أشعار هائلة بسعادة رجل يملك  
شلنا ، شلنا جميلا ، جديدا ، لامعا ؛ رجل لم يعد بعدئذ يخشى الفقر الشاحب  
الوجه ، ويستطيع أن يلج حانة حيث يطلب جعة راغية ، ومحاراً طازجا ؛  
ولا يسمح أبداً للوزن أن يبدى وجهه تماما ، بل يطرده ببعض الحيلة الفكهة ،  
بمجرد ما ينوى أن يستقر — هل في هذا شيء يضحك ؟ أجل ، مادامت  
صحيفة « تتلر » قد أعلنت أن أجل شعر هزلي نظم باللغة الانجليزية هو « الشلن  
الرائع » *The Splendid Shilling* لجون فيليبس .

(١) ياعروس الشعر ، احكي لي عن هذا الجدال الناجع — بين أطباء لندن والصيادلة —  
المتحدين ضد الجنس البشري منذ زمن طويل : — أى قدرة إلهية أوقعتهم في  
عداء لانقاذنا ؟ — كيف تركوا مرضاهم يتنفسون — ليوجهوا إلى أصدقائهم  
الأعزاء أعنف الضربات ؟ — كيف حولوا القلنسوة إلى خوذة — والمحتمن إلى  
مدفع ، والحبة إلى قنبلة ؟ — لقد عرفوا الحمد : فضحوا بحياتهم ، وقد تمسوا  
في نقائلهم — وتركوا لنا حياتنا . . .

فولتير ، تعليقا على « صيدلية » صامويل جارت ، ١٦٩٩ . في القاموس الفلسفي باب  
بوفون Bouffon .

(٢) غنى ، أيتها العروس السماوية — أشيلاء لم يسبق لها مثيل في نثر أو شعر —  
شلن واحد . . . ( ج . فيلبس ، الشلن الرائع ، ١٧٠١ و ١٧٠٥ ) .

وبالمثل أيضاً يجلس بوب إلى مكتبه ، ويتفنن في نظم « خصلة الشعر المغتصبة » (١) . وإنه لفخور بالجديد الذى وجده ، مثلما كان بوالو فيخوراً بانتاجه مؤلفاً ليس له مثيل في الفرنسية . في كل أشعار البطولة الهزلية ، لا بد من عادة ؛ وهذا تعبير اخترعه المهرة ، دلالة على الآلهة التى توجه الحركة ، وعلى هذه العدة تتوقف الأعجوبة . وعلى ذلك ، خطر بباله أن يستعمل بدلاً من الملائكة والشياطين التى كلت من طول الخدمة ، جنيات الهواء Sylphides وأقزام البحر الخارقة للعادة gnomes وعرائس الشتاء : شخصيات مقترضة من عالم السحر ، ذلك أن المسألة ليست عدم الاقتراض ، بل الغرض هو التوصل إلى مقرضين جدد . ثم يخترع سورداً جديداً ؛ فلو أنه وصف موضوعات لا يسهل إدخالها في نطاق الشعر ، مثل مباراة في لعب الورق ، فأى فضل ! إن الصعوبة المذلة هى الفن العظيم — نبيل عاشق يقص خصلة شقراء من حسناء ، فتغضب أشد الغضب ، ويتبع ذلك هياج شديد في عالم الانس والحجن . عقدة خفيفة لقصييدة قديمة ؛ بعض أزهار دقيقة مطرزة بتفنن ، وبعض الفطنة ، وبعض البريق الأخاذ : هل في هذا ضحك ؟

وكان الضحك الايطالى أعلى رنيناً على كل حال . كانت عروس الشعر في الريف التوسكاني ، تستشعر حرية أوفر ، وخفة أكثر ، وتنطلق على سيجيتها دون كبير تكلف :

*Non è figlia del Sol la Musa mia,  
Nè ha cetra d'oro o d'ebano contesta  
È rozza villanella, e si trastulla  
Cantando in aria... (٢)*

والحق أنها كانت تريد هى الأخرى ، جعل قصص البطولة سهازل : لكن دون تكلف ، alla buona ؛ وإن اختلط الأمر عليها ، كالنمل الذى يصادف في طريقه جصاً أو دقيقاً ، فإنه لا يجد في ذلك إلا لهواً :

(١) *The rape of the Lock, 1712*

(٢) عروسى أنا ، ليست ابنة للشمس — ليس لها قيثارة من ذهب ، أو مطعم بالآبنوس — إنها ريفية خشنة ، تتسلى — بالغناء في الهواء . . .

*Ma canta per istar allegramente,  
E accio' che si rallegri ancor chi l'ode;  
Nè sa, nè bada a regole niente...* (١)

وهي إذن لم تكن تتردد . لم يعد هناك حب سماوي ، ولا شرف سام ، ولا روح فروسية ؛ لقد تحول الفرسان البواسل إلى غلاظ ثقلاء ، أفاقين ، سكارى :

*E Rinaldo ed Orlando in compagnia  
S'ubbricano ben bene all'osteria...* (٢)

كأنت هذه العروس المجنونة ، والغليظة أحيانا ، تعاسل كل العناصر القديمة بلا احترام ، من مثل السحر ، والافتتان ، وركوب الخيل ، والمطاردة ، والكمين ، والقتال الغريب ، والخان المسحور ، والسجن ، والقتل الشعري ؛ وتنتقل من حكاية إلى حكاية ، ومن صورة هزلية إلى أخرى ، دون أن تفكر في السير المستقيم ، والاتجاه صوب هدف معين أيا كان ، بل لم يكن يشغلها إلا تبيان كم يسهل علينا أن نضحك وأن نضحك ، على ذقون الحمقى والمدعين . لقد أبعده ممثلو « الكوميديا الفنية » *Commedia dell'arte* الايطاليون من باريس ، عام ١٦٩٧ ؛ وقد كانوا في غاية الجراءة ، والمجازية ، والمرح ؛ فأغلق مسرحهم . ولكن رينيار بقي ، رينيار المحبوب ؛ ولم يكن الحزن من طبع بورجوازي باريس . وكان يكتفى بأبسط العقد ، من استبدال الشخصيات ، والتعرف ، والمفاجآت المتوقعة ؛ وبأكثر الشخصيات استعمالا في قائمة المسرح ، من مثل المرابين الذين يخنقون أولاد الذوات ، والأرامل الثريات اللاتي يستغلن الشبان ، والأمهات المتحكات ، والفتيات العاشقات ، والشبان الطائشين ؛ وكم من خدم ووصيفات ، لاتمام التمثيل ! وسواء كان بمعجزة ، أو لعله بسبب إكثاره ، أو براعته ، أو حميته التي لا تغيض ، أو خبرته بالمواقف والكلمات ، أو مسرح طبعه الذي لا يقاوم ، — فقد كان يستمد من هذه المواد القديمة رواية مضحكة تبدو دائما جديدة . هل هناك أسهل من مسرحيته « الرجل النائه » *Distrain* ؟ لياندر هذا ، الذي يفقد حذائه في الطريق

(١) إنها لاتغنى إلا لتسعد — ولتسعد أيضا من يصغى إليها — إنها لا تعرف القواعد ، ولا تعيرها أدنى اهتمام .

(٢) ورينو ورولاندا معا — يسكران في الحانة ما استطاعا .

ويتبع طريق بيكاردى على أنه طريق روان ، والذي يضع إصبعه فى بيضة بمبرشت (ألاكوك) ويعضه حتى يتفجر منه الدم ، والذي يخطى فى حجرته ، ويلقى بساعته على الأرض ، والذي يعلن هيامه بالحسنة التى لا يحبها ، وكراهيته للحسنة التى يحبها ، والذي—بعد عشرين حادثاً على هذا النوال—ينسى ليلة زفافه أنه قد تزوج: أهناك شئ معروف أكثر من ذلك؟ أو مستغل أكثر من ذلك، أو فى معنى آخر مصطلح عليه أو معتاد؟ إنها لاتعدو شخصية من شخصيات لا برويير أطيلت على خمسة فصول . ومع ذلك ، تجوز عليك الخدعة ، وتضحك على كل عثرة ، كالأطفال . هذا المنظر أو حتى تلك المسرحية يمكن أن تكون محزنة ، لكن ليس الحزن العميق الذى نجده عند سولبير ، مادام رينيار لا يتعمق أبداً النفسيات . ولكنه لا يجهل ما فى الناس من نقائص ووزائل ؛ لكنه يعرف تماماً ما للنقود من قوة وتأثير على مجتمع يوشك على الانحلال ، لكنه لا يتردد فى تصوير كهول محطمين ، محمومين ، مصروعين ، مشلولين ، مسلولين ، مبهورين ، مستسقين ، لم تبق فى فمهم إلا سن واحدة ، سوف تقع عند أول نوبة من السعال — يشتهون فتيات فى ريعان الشباب . فملهاة « الموصى العمومى » ، *Le Légataire Universel* تسودها رائحة المآتم . . . . وأى بأس؟ إننا لا نحس الحزن بل المرح . إن الشخصيات لا تظهر على المسرح إلا لتسلينا لحظة ، ولتلمع لعة عابرة . إنها سريعة ، خفيفة ، تتراقص ، وتتواهب : لأنها قررت أن تعتقد — سرّة وإلى الأبد — أن علاج الشرور كلها ، حتى فى حالة الموت ، حبة من الجنون . وحين تنتهى المسرحية ، وقد أصبح الغيورون والبخلاء موضع استهزاء ، وحين ينتهى أسر الخدم والوصيفات *les Crispin et les Lisette* (١) بالعفو والتبرئة ، ويتزوج العشاق ، وحين يحيى الممثلون الجمهور ويسدل الستار ، حينئذ لا يحتفظ المشاهد السرور إلا بذكرى واحدة :

*Il faut bien que je rie*

*De tout ce que je vois tous les jours dans la vie* (٢)

(١) كرسبان : شخصية فى ملهاة أصلها إيطالى أصبح مثالا للخداع الطريف الخالع العذار — وليزيت : اللقب الشائع للوصيفات فى الملهاة ، حبة مأكرة لعبوب . [الترجمان]  
 (٢) لابد من أن أضحك من كل ما أشاهد كل يوم فى الحياة . . . .  
 ( الرجل التائه ، الفصل الأول ، المنظر السادس )

مصاحبة جديدة في نعمة خافتة ، تخالف الأنعام العالية . لم يكن تولاند  
ولا كولنز من الضاحكين ؛ ولم تكن لتنال من فونتنل إلا بسمة ، خفيفة ،  
ساخرة ؛ وكان جان لي كلير جاداً ؛ وجوريو محزوناً مكروباً . وكان بوسويه  
في شيخوخته صارماً ، ويل للضحاحكين فلسوف يكون ؛ وكان فينلون يرى  
في الضحك شيئاً غير لائق ؛ ولم يعد لوييس الرابع عشر يضحك ، في خريفه ،  
في شتائه . ولكن أولئك لم يكونوا يمثلون الجنس البشرى بأسره .

\*\*

فلنكشف الآن كما كان الشيطان الأعرج يفعل ، عن مساكن جديدة .  
فلندع المازحين ، السكارى ، والأشقياء picaros والمتشردين rogues والنشالين ،  
أولئك الرفاق الخالي البال ؛ ولندع الضاحكين ؛ ولنتلفت إلى النفوس  
الحساسة ، التي تعجز عن العيش بلا انفعال ، بلا حزن ، بلا يأس ؛ ولنتوجه  
صوب الذين يعتقدون أن العقل غير إنساني .

ليس الموضوع أن نعرف ما إذا كان الناس لم يكفوا أبداً عن البكاء  
في هذه الدنيا ، بل هو تحديد الزمن الذي بدأنا نعتقد فيه أننا نستطيع أن  
نكشف عن دسوعنا بلا خجل .

هاك منظرًا في مسرح ؛ بطل بخوذته ، وريشه ، وفيخامته ، يشكو لبطل  
آخر ، روماني مثله ، حالة قلبه الضعيف :

SERVILIUS.

*Mais quand je songe, hélas! que l'état où je suis  
Va bientôt exposer aux plus mortels ennuis  
Une jeune beauté, dont la foi, la constance,  
Ne peut trop exiger de ma reconnaissance,  
Je perds à cet objet toute ma fermeté.  
Eh! pardonne, de grâce, à cette lâcheté,  
Qui, me faisant prévoir tant d'affreuses alarmes  
Dans ton sein généreux me fait verser des larmes. (١)*

(١) سرفليوس : وآسفاه ! عندما أفكر أن حالتي — سوف تجلب أسوأ الشرور —  
على فتاة جميلة جعلني إخلاصها ووفائها — مدينا لها بشكر ليس له حدود —  
إني أفقد لذلك كل جأشي وصمودي فاغفر لي بربك ، هذا الهوان الذي يجعلني  
أسكب أدمعي في قلبك الكريم — لما أستشف فيه من مخاطر مرعبة . . .

دموع ! بطل مدرع يجرؤ على ذرف الدموع ، على المسرح ! إن الآخر يعصف به الغضب أكثر مما يملكه التأثير :

MANLIUS.

*Des larmes ! Ah ! plutôt, par tes vaillantes mains,  
Soient noyés dans leur sang ces perfides Romains.  
Des larmes ! Jusque-là la douleur te possède ! (١)*

إن المشاهدين يتعجبون ، سائلين : بأى سر لا يخالنا الخجل من الضحك على المسرح بتلك الحرية ، بينما نخجل من البكاء (٢)؟ هاك غرفة بيير بايل ؛ إنه يكتب إلى أخيه يعقوب ؛ لقد ماتت أمهما من قريب . إنه يقبل البكاء في مثل هذه الحالة من الحزن .

— « إنى أوافق على غزارة دموعك ، ولا يزعجنى أن تشجعنى على أن أذرف منها بفيض . لا ينبغي أن نلقى أذنا صاغية للرواقيين . . . إن الحساسية التي نظهرها أمام ضربات القدر القاسية ، لا تعدم لها أثراً ؛ لذلك ينبغي أن نأسل في رقة القلب أكثر مما نأسل في خشونة الطبع . إن الله سيبارك دموعنا وأنيننا . . . »

ثم يتردد بايل قليلا ، ويتراجع . لنا الحق في البكاء ، لكن ليس لنا الحق في البكاء على الدوام :

— « ولو أنى قلت لك ذلك ، إلا أنى لا أمتدح الخلق الذى تحدثنى عنه ، عندما تقول بالحرف إن لك طبعاً لنا ، وإنك لا تستطيع أن ترى أقل شئ أو تفكر فيه إلا وتبكى في غزارة عجيبة . إن هذا الضعف لا يليق برجل ، ضعف تكاد نجيزه للنساء . في كل ظروف الحياة وتقلباتها ، يجب أن يحتفظ كل ما يخص الرجل بصفة من الرجولة . . . »

(١) مانليوس : دموع ! آه ! . . . أفضل أن أرى أولئك الرومان الخوان — غارقين في الدماء بيديك الباسلتين — دموع ! إلى هذا الحد تملكك العذاب ؟  
(مانليوس كابتوليوس ، مأساة « لافوس دوبيني » التي مثلها لأول مرة ممثلو الملك يوم السبت ١٨ يناير ١٦٩٨ ) .  
(٢) لابرويير ، الشخصيات ، « عن نتاج الفكر . »

ولكن ترى ألا يكون قد جرح أخاه؟ إنه يتراجع سرّة أخرى: آه! إذا أراد أخوه أن يبكي، فليبك كيفما شاء!

— «بيد أني وإن كنت أفدر صحة ألك البالغ، إلا أني لا أوافق على هذا الحنان الكبير الشامل الذي تشعر به: وهكذا مع إدانتى لطبع شفيع إلى هذا الحد، فاني لا أؤخذك على هذا الفيض من الدسوع التي ذرفتها وسوف تذرّفها. يمكننا أن نستسلم إلى تلك المغالاة، دون أن ننقد قوة الذهن التي يجب أن يمتاز بها جنسنا، وسادام أكبر الأبطال، وأكبر القاديسين، قد عرفوا البكاء، فلا ينبغي أن تعدد الدسوع ضعفا نسويا...» (١)

ضعف نسوي... هاهو ذا المنزل البورجوازي الثرى حيث تكتسب امرأة ضعيفة رسائل حب وهي تبكي وتنتحب. لقد أحببت في مقتبل عمرها البارون دي برونييل الذي خالته أجهل رجل في الدنيا، ولما تملكها اليأس لعلمها أنه ليس حرّاً، عزمت ذات يوم على الفرار من بيت أبيها، واتجهت صوب الدير؛ ولكن أباهما لحق بها في الطريق، وزوجها رغم أنها ليعيد إليها صوابها؛ وأصبحت الأنسة آن دي بليزاني، الرئيسة فيراند. وحدث أن رأت الرئيسة البارون سرّة أخرى، وأحبته أشد الحب، وأحبته بجنون. ومن هنا، تلك الرسائل، التي تعد من أجهل الرسائل التي دججها قلم عاشقة، وكلها مليئة بالاضطراب: سعادة حب يجهله العالم؛ متعة تزداد قيمة كلما بقيت سرّاً؛ حزن منشؤه أن هذا الحب لا يستطيع أن ينتج، حرّاً، مجيداً؛ غضب من أجل العراقيل التي تتجمع شيئاً فشيئاً؛ نغبات حانية شبه أسمية، وصيحات عاطفية، وتقفز للتفكير في أنها ستعود — بعد مغادرة عشيقها — إلى زوج ينفر منه جسدها؛ بصيرة الشعور، «نعم يا عزيزي، أنت تحبني، وأنا أعبدك...»؛ فقدان التقدير الذي لا يكفي لمحو الحب: «لقد فقدت عطف أسرتي، وأحلت عشى إلى جحيم من أجل عشيق لا يستحق إلا حقدى. ولكن يا إلهي! هنا ذروة تعاستي، لا أستطيع أن أكرهه، إني أحتقره، إني أشمئز منه، ولكني

(١) ما لم ينشر من رسائل بايل، ج. ل. چيريج. وفان روز برويك، عمدة يوليو - سبتمبر ١٩٣٢ من «رومانيك - ريفيو».

أشعر بأنى لست أكرهه . . . » إن هذه المرأة المفطورة على العشق ، فيها بعض الصفات التي ستفخر بها البطلات الرومانتيكيات بعد ذلك الوقت بمائة وأربعين عاماً . فهي تقدر أن السعادة سلوة ، أما الحزن فيجعلنا أكثر إحساساً للحب : إنها أتعس امرأة أحببت ؛ لقد وسمها القدر : نظر إليها الحب ، منذ المهامد ، كضحية لعذابه . إنها تذرف سيلاً من الدموع (١) . — منذ ذلك الوقت (٢) !

وكان المجتمع ينحل ، وهذا صحيح ؛ وكانت عدوى الترف تستشري ، والترف يقتضى النقود ، بكثرة ، وبسرعة : عندئذ أخذ الناس يبحثون عنها في المضاربة ، وأوراق النصيب ، وشركات الأيراد ، ولعب الورق . إن مسرحية *Turcaret* ظهرت في ١٧٠٩ ؛ ويعتقد توركاريه ذلك الخادم الذي أصبح ملتزماً غنياً ، أن كل شيء يشتري بالجنين ، السلوك المهذب ، والفن ، وقلوب النساء . ولا ريب في أن لوساج يبيده لنا وقد انتهى إلى الافلاس وأصبح موضع سخرية واستهزاء : إلا أن النقود وإن لم تقدر على كل شيء فهي تفسد كل شيء ؛ وهالك المغزى الخلقى للمسرحية الذي يستخلصه الخادم فرونتان ، في حديثه مع الوصيصة ليزيت : « إنى معجب بسير الحياة البشرية ؛ إننا ننتف ريش غانية ، والغانية تأكل رجل أعمال ، ورجل الأعمال ينهب غيره ، وهكذا ننتهي إلى أطرف سلسلة من الخداع في الدنيا . » وفي مسرحيات « دانكورت » ، مرآة ذلك الوقت ، الجميلة الأضلاع ، نجد أكثر الناس اصطناعاً للسذاجة ، وأوفرهم فساداً ، وأكثرهم ولعاً بالألقاب والمال ، هن النساء

وصحيح أيضاً أن الناس دفعوا بالنساء نحو الفلسفة ونحو العلم : لورد

- (١) قصة حديثة لحب بليز وكليانت ، ١٦٨٩ - رسالات الرئيسة فيراند *La Présidente Ferrand* إلى البارون دي بروتييل de Breteuil طبع أوچين آس ، ١٨٨٠ .
- (٢) يتعجب المؤلف لهذه المشاعر الرومانتيكية ، التي تظهر قبل الأوان . والرومانتيكية مذهب ظهر في مبادئ القرن التاسع عشر ، وهو التحرر من قيود العصر الكلاسيكي . وأول مبشر بها جان چاك روسو ، ومن سوحها شاتوبرياند Chateaubriand ومدام دي ستال . وتمتاز الرومانتيكية على الأخص بالفردية وتنفوق الحساسية والخيال على العقل . ومن إعلانها لامارتين Lamartine ، والفريد دي فيني De Vigny ، وفكتور هوجو ، والفريد دي موسيه Musset وچورج صاند وبلزاك . [ المترجمان ]

هاليفاكس حيناً ، وفونتنل حيناً آخر . وطالب البعض بتحرير النساء تحريراً تاماً ؛ لأن الرجال أساءوا استعمال سلطتهم — عندما وضعوا القوانين — لاستبقائهن تحت حكمهم ؛ وعهدوا إليهن بأشغال تافهة ، ورسخ الشر بفضل العادة ، واستفحل بفضل التربية ؛ ولقد حان الوقت لكي نغير هذه الحال . يجب أن تصبح النساء على قدم المساواة مع الرجال ، فبذلك يقضى المنطق والعقل ؛ يجب أن يتلقين نفس التعليم ، وأن يشغلن نفس الوظائف ، في القضاء ، والمعارف ، وحتى في قيادة الجيش ، وحتى الكنيسة . أما بوالو ، الذي لم ينس « النساء العالمات » ، فليس من هذا الرأي ؛ فتراه يتنسر ، ويسخر من الداعرات والغانيات ، والمقامرات ، والعالمات ، والمتكلفات ، والهوائيات ؛ ويذكر في لهجة ساخرة بمفاتن الزواج : ولكن ترى بيرو Perrault يسارع إلى الذود عن شرف الجنس اللطيف . ويعلم أن بوالو رجعي الأفكار ؛ فانه يهجو النساء لأنه اقتبس هذا الموضوع من هوراس وجوفينال Juvénal ، وأنه يظن نفسه ملزماً بترديد كل مقاله الأقدمون . بيد أن « المحدثين » ، وقد يفوقونهم سداد رأي ، يعلمون أن أخلاق اليوم تفترق كثيراً عن أخلاق الأمس : لله در النساء ! إن فيلسوفا إيطاليا ، باولو ماتبادوريا يردد ذلك ، مبيناً « أن المرأة ، في كل الفضائل الكبرى تقريباً ، لا تقل عن الرجل في شيء . »

كل هذا صحيح . يقرر المشاهدون أن الفتيات يتحررن ، وأنهن ينسين العادات القديمة الطيبة ، وأن سلوكهن فاضح ؛ وأن النساء سفهات ، شرهات ، متغرضات . ولكن إذا وقع حب كبير ، بما يتبعه من عقبات ، نرى العاطفة تسترد حقوقها فوراً ، وتنفجر ، وتترجم إلى صيحات مؤلمة ، وزفرات موجعة : إن في ذلك نداءً لعصر قريب ، سوف يريد أن يكون بأكمله ، عاطفة .



بأى براعة تتبدى الحساسية — كأنما من وراء حجاب — تلك الحساسية التي يريد البعض استئصال شأفتها من الدنيا ! صدرت عن إنجلترا أيضاً إشارة ، وكان مصدرها ممثل ، كولى سيبير : لقد استشف هذا الليل الحثي لزمته . كفى مسرحيات ماجنة ! كفى نبلاء فاسقين يزهبون على

المسرح زهو الطاووس ! كان جيريمي كوليير محنتاً ، لقد حان الوقت لكي نرد المسرحيات الانجليزية إلى اللياقة والأخلاق . واتخذت الأخلاق الشعور كرفيق .

فلنفترض زوجاً شريراً ، قد هجر زوجته بقسوة ، بحثاً عن المغامرة ، وأضاع ماله كله في النبيذ العتيق والنساء الفتييات — كما يقول ؛ ثم عاد إلى إنجلترا مفلساً ، لكن محتفظاً بسفاهته . ودون أن نرهق خيالنا ، فلنسمِّه لوفليس Loveless ولنفترض من جهة أخرى مثال الزوجات أماندا *Amanda* . إنها لم تنقطع عن حب زوجها الشرير ، وتريد أن تستعيده . ترى هل يحسن الالتجاء إلى سواعظ الأخلاق مباشرة ؟ كلا ، قطعاً ؛ وإلا هرب من جديد . فمن الأفضل أن تلجأ إلى الشعور ، إلى الندم ؛ إلى بقية من عاطفة ، تستيقظ رويداً رويداً ؛ بل إلى المتعة . وأخيراً ، سيترف لوفليس بأخطائه ، وسيتكلم مستغفراً : « آه . . . إنك انتشلتنى من خمود الرذيلة العميق . . . دعيني أركع أمامك ، وأشكر تلك التي أخضعتني بفضيلتها الظافرة . هنا أود أن يكون مقامي ، راعماً هكذا ، لشدة خجلي ؛ أريد أن أتطهر من جرائمى في سيل من دموع التوبة . » لقد مر بمدرسة الشعور .

لقد مثلت مسرحية كولى سبير هذه ، « حيلة الحب الأخيرة » *Love's Last Shift* على المسرح الملكي بلندن في عام ١٦٩٦ ، ولقيت نجاحاً عظيماً . ومنذئذ تتابعت كوميديات ذات لونين ، سرحة ، جادة ، بورجوازية ، أخلاقية ، تشوبها رائحة الخلاعة القديمة : ذلك أنك كنت ترى فيها أكثر من شخصية مقتبسة من القائمة القديمة ، وبالتالي ، لم تكف عن عادة الشرب ، أو مغازلة الفتييات ، أو التحدث في لهجة غير صقيلة ، دون مراعاة للأذان العفيفة . كوميديات حديثة ، بما فيها من بعض المناظر الحية ، الصافية ؛ وقد تستعمل دون وازع ، أقدم الأساليب ، نعى التنكر ، والتسخر ، والخطأ في عنوان الرسائل ، والغلط في الشخصيات ؛ وترى كولى سبير يقدم مثلاً ، بافتراضه أن لوفليس لا يتعرف زوجته أماندا ؛ ويفسر ذلك بأن سياء أماندا قد تغير قليلاً بفعل الجدرى . كوميديات تبدو فجأة ، ثقيلة في خواتم الفصول وأحياناً في خواتم المناظر ، لما فيها من بعض الأشعار الصغيرة الأخلاقية ، التي يصعب أن نعددها طبيعية أو جميلة . ولكنها تنفصح جميعها عن حالة ضمير واحدة ،

وتقدم جميعاً ناحية سيكولوجية واحدة، من أجلها نغضى عن الكثير: فإن إصلاحاً أخلاقياً لا يمكن أن يتحقق بفعل خارجي، بالقوة، والسلطة، بل لابد من ارتضاء النفس. إذن ينبغي — قبل أن نتوسل بالارادة الجديدة، أن تتأثر النفس، وأن تنفعل أولاً، ثم تعالج، بالشعور. فالزوج الذي يستشف اضطراب زوجته، لن يحصل منها على شيء، سالم يحرك في قلبها شعور الأسف والندم. وفي سبيل ذلك، يتخيل رواية كاملة، فيلجأ إلى عشيق كاذب، يستأجره ليدفع بها إلى حافة الخطيئة: وحين تصبح شبه مذنبه، تحس فظاعة الكذب، والخيانة، فترجع إلى أحضان الفضيلة لاشمئزازها من الرذيلة.

وسنصبح أكثر حناناً. إن خلاصاً مسنين، مخلصين إخلاص الكلاب الأمانة، شاكرين لأسيادهم ما طوقوا به أعناقهم من أفضال، سيكشفون في الأوقات الحرجة عن إخلاص يستحق الإعجاب. وسنترك بعض النساء اللواتي يستعصى إصلاحهن لنصيبهن التعس؛ ولكن سوادهن سيكون رقيقات، وديعات؛ وإذا تشتت منهن القلب، فسنعرف كيف نعيدهن إلى الطريق المستقيم. وعند الرجال، لن يعدم الثبات في حب مخلص جزاءه، بعد الامتحان. وسنعجب بالوالد الذي يعنى بالأب لا يصيب ابنه أي ألم، وبالابن الذي لا يقل عنه رقة وعطفاً: أحسن الآباء وأحدهم وأحسن الأبناء وأحناهم: شخصيتان سرهفتا الحس — « كالمست المستحية » — تنكشان بمجرد اللمس. وسنرى في نفس المسرحية عذراء ساذجة، نقية وفاتنة، تأتي الاعتقاد في وجود الشر، مهما قيل لها. وأقل الشخصيات ظرفاً، ستبدو على الأكثر، في شيء من خشونة الطبع أو قليل من الغيرة. ولكن سنسكن الغيرة وتستحيل الخشونة إلى رقة، ويزول سوء التفاهم، ثم يتعانق الجميع، بين التسوع. تلك حال « العاشقين المتحفظين » *The conscious lovers* لستيل Steele اللذين يسجلان في عام ١٧٢٣ انتصار هذا الطراز.

إن شرطاً من الأدب يريد أن يصبح « خدمة كريمة في سبيل الإنسانية (١) ».

(١) ر. ستيل، ملهارة، الزوج الوفي، ١٧٠٥. R. Steele, *the tender husband*, 1705.

إلى مستر أديسون، « الشعر... خدمة كريمة في سبيل الإنسانية ».



الأوبرا — أى إهانة موجهة إلى العقل ! تملق العيون والآذان ، استفزاز العقل : إن فى ذلك لتحرشا . غناء كل شىء من البداية إلى النهاية ، لا فى إعلان العشق فحسب ، بل فى الخطب والرسائل ، والأواصر ، والشتائم ، والمسارة ، والأسرار : فأى سخف ! « هل نستطيع أن نتخيل أن سيداً ينادى خادمه ، أو يكلفه بمهمة ، وهو يغنى ؟ أو أن صديقاً يسر فى أذن صديقه وهو يغنى ؟ أو تدور المناقشة فى مجلس بالغناء ؟ أو نغنى الأواصر التى نصدرها ؟ أو يدور القتل فى مذبحه بالسيف والرمح على أنغام الموسيقى . . . ؟ » — « إذا أردت أن تعرف ماهى الأوبرا ، فاعلم أنها عمل غريب من الشعر والموسيقى ، حيث الشاعر والموسيقار ، وقد ضاق كلاهما بالآخر ، يبذلان كل جهدهما فى إثيان تأليف ردى . . . »

أضف إلى ذلك ، المكلف بالزخرفة ، ذلك المجرم الآخر . سلا المسرح بأعاجيب من الورق المقوى ، لابدال الفائدة السيكولوجية ، بمؤثرات خارجية من المفاجأة والدهشة ، واختراع آلات معقدة أبلغ التعقيد ، من عجلات تطير ، وآلة تصعد إلى السماء ، ووحوش ناطقة : أى مخالفة للمنطق ! وجماع القول ، أننا إذا استمعنا إلى ذوى العقول السديدة ، أولئك الذين يحبون الشئ الحقيقى ، المحتمل ، المنطقى ، المنتظم ، مثل سانت أفريموند وبوالو ولا برويير ، وأديسون وستيل ، وجرافينا وجراسمبيني ومافى وموراتورى ، لوجدنا : أن الأوبرا تخالف العقل والصواب ، وأنها تستأهل كل احتقار . ذلك أن « حماقة حافلة بالموسيقا ، والرقص والآلات والزخارف لحماقة رائعة ، ولكنها حماقة على كل حال . . . (١) »

بالضبط : كانت الأوبرا مخالفة للعقل ، وكانت تروق الناس ! ذلك هو الواقع الذى لم يستطع أن ينكره أحد ؛ الجديد الذى أثار غيظ الذائدين عن العقل السليم . انتصرت الأوبرا فى كل مكان ؛ غزت فلورنسة ، والبندقية ، وروما ، وناپولى ، وكل مدينة فى إيطاليا . واستقرت فى المراكز الموسيقية الكبرى فى ألمانيا ، درسدن وليبزيغ . وكانت فنتنة فيينا ، التى أصبحت وطننا ثانيا لها .

(١) سانت أفريموند ، رسالة عن الأوبرا .

فما من أمير أو دوق كبير لم يرد أن يكون له مسرح خاص ، ومزخرفين ، ومؤلفين ، وأحسن قادة الأجواق Maestro ، وأحسن أساتذة الرقص ، وأحسن المغنيات Prima donna . ومجدت باريس لولى وكينو . واحتجرت لندن هاندل . وتأخرت مدريد قليلا ؛ وقد حكمت مدام « دولنوا » d'Aulnoy ، وهي التي تبشيم ، في « قصة السفر إلى اسبانيا » في عام ١٦٩١ : « لم أر قط أدوات في مثل هذه الحقارة ؛ فقد كانت الآلهة تنزل بخيلها بواسطة دعامة خشبية مشدودة من طرف إلى طرف ؛ والشمس تسطع بواسطة اثني عشر فانوسا من الورق المزيّن داخل كل منها مصباح ؛ وعندما كانت « ألسين » تقوم بأعمالها السحرية ، وتستحضر الشياطين ، كانت الشياطين تخرج من الجحيم في يسر ، على درج . . . » هذه الحالة سنتغير ؛ ففي عام ١٧٠٣ ، ستستقر شركة إيطالية في مدريد .

ما منشأ هذا الولع ؟ — إن الناس في حاجة أبدية إلى عامل مؤثر ؛ والمأساة التي أصبحت منذ نهاية القرن محض تقليد وآلية ، لم تعد تهيئه . إذن فستهيئه الموسيقى . إن حاجة سيكولوجية ملحة ، تنتهي إلى تحويل في الفن ، تنتهي إلى شكل جديد .

تأليف واسع مزخرف ، تشارك فيه كل الفنون ؛ عيد من الأنغام ، والألوان ، الحركات الايقاعية ، افتتاح الأذان والعيون ؛ انفعال ذو صفة نوعية جديدة ، نادسنا لا نستطيع أن نحلله ، مادامت فتنته حسية ، مادام الجسد نفسه يبدو كأنما يذوب ويلين بتأثيره ؛ متعة تجمع بين السحر والفتنة ؛ عميقة لا يمكن شرحها ، لذّة في صميم القلب ؛ تلك هي الأوبرا . ولو أن الناس انتقدوها مائة وألف مرة ، لذهب نقدهم أدراج الرياح . لقد أخطأ الرقباء ؛ لم يدركوا أن رغبة قد استيقظت في النفوس ، ولا بد من إشباعها ؛ كان الجمهور ينشد ما هو عجيب ، مؤثر ، عاطفي . لم تعد النفوس تريد أن تقتنع ، بل تريد أن « تضطرب » (١) هنا كان التغير .

ولنسع إلى زيادة التخصيص ؛ إن ماقابلته أوروبا بجاسة ، كان الأوبرا الايطالية . فايطاليا ، التي قدمت مثالا لها ، هي النبع الذي لا ينضب ، والذي تنبثق منه الأمواج الرنانة ؛ إنها تمد أوروبا بأسرها بالموسيقا والموسيقيين معاً ؛

(١) مدام دي سيفينييه ، رسالة في ٨ يناير ١٦٧٤ .

إنها النغم نفسه . إن مأسيتها الموسيقية ( ميلودراما ) تغزو كل الشعوب المجاورة . وباريس تريد الكفاح ولكن الموهبة التي تقدمها ضد إيطاليا ، إيطالية ؛ وعلى كل حال ، فإن نصف فرنسا هو الذي يقاوم ، أما النصف الآخر فقد تم غزوه . وتظل هاسبورج طويلاً ، مخلصاً للموسيقا الألمانية ، ولكن ينتهي بها الأمر إلى الاستسلام . إن عالم الأوبرا ليس إلا مستعمرة إيطالية .

وما سنشأ هذه المعاملة اللطيفة بدورها ، وهذه السيادة ؟ — إن مؤلفي الأوبرا الإيطاليين ، يريدون هم أيضاً أن يظلوا مخلصين للعقل السامى ؛ فانهم ينقدون أنفسهم ، باطاعته ، من احتقار النقاد ؛ وبذا يبذلون كبار مؤلفي التراجيديا مقاماً . إن مجهود بنيديتو مارسيلو ، وأبوستولوزينو — مورد جلاله الامبراطور — والذي يريد أن يكون بمثابة بيير كورنيل في الأوبرا ، يهدف إلى تنظيم قصة الأوبرا ، وأن يحذف منها ما لا يتفق مع السياق ، وأن يحصرها ، وأن يصفبها ، وأخيراً أن يقر بها من التراجيديا ؛ وسينتهي ميتاستاز فيما بعد ، إلى تبرير الميلودراما باسم « فن الشعر » الأرسطوطاليسى .

لكن بلا جدوى . فلم يستطع مؤلفو الأوبرا المتحمسين أولئك ، وقد كانوا ضحايا الوهم الأدبي السائد حولهم ، والذي يرفع الملحمة والمأساة إلى أعلى درجات إنتاج الذهن الانساني — لم يستطيعوا أن يفهموا أن الأدب لم يعد إلا خادماً متواضعاً ، تفرض الموسيقى عليه قوانينها . فالموسيقا تتطلب هنا لحناً ، وهناك ثنائياً ، وهناك جوقة مرتلين ؛ تريد عدداً معيناً من الشطرات ، على إيقاع معين ، تخصص للصوت المرتفع ( تينور ) أو للصوت المنخفض ( باس ) ؛ كانت تتحكم في كل شيء ، حتى اللغة ، التي لا ينبغي أن تقدم إلا اللفظ السهل ، والمنسجم . وهي لا تطالب من الكاتب إلا المرونة والبراعة ؛ فلم تترك له إلا فن المجازاة ، فن طاعة الملحن ، وقائد الجوقة ، والمغنية الأولى ( البريمادونا ) . ولما كانت اللغة الإيطالية ، أغنى وأحسن وقعا ، وأكثر انسجاماً ، وأوفر تنوعاً من كل لغات أوروبا الأخرى ؛ فقد استعادت هنا المكانة التي كانت قد فقدتها ، عندما كان الأمر يتعلق بالتعبير عن الأفكار .

الموسيقا الإيطالية ، أى فتنة ! أى تدفق هارب من القيود ! أى غنى دافئ ! أى غزارة ! أى سهولة منتصرة ! كانت بما هي عليه من كرم وغنى لا يغيض — تقدم لجمهور لا غنى له عنها ما ليس في الموسيقا الفرنسية ، ولا في

أى موسيقا فى أى بلد : الحمية والحوية والشخصية المميزة . نعم ، الشخصية ، البارزة أبداً ، سواء فى حيويتها أو فى رقتها . لم تنشأ توافقا موسيقيا رقيقا ، متساويا ، سوحداً ، لا يعمل إلا بالتسلسل ، حذراً ، منطقياً : بل كانت تتجاسر وتخطر ، وبجسارتها هذه كانت تشمل النفس . إنهم المعاصرون أيضا الذين يقررون هذا ، بل حتى الفرنسيون . « إن الموسيقيين الفرنسيين ليعتقدون أنهم قد ضاعوا لو خالفوا القواعد أدنى مخالفة ؛ إنهم يتملقون ، يدغدغون ، يحترمون الأذن ، ومع ذلك يرتعدون مخافة ألا ينجحوا بعد ما أدوا ما عليهم بكل ما يمكن من انتظام ؛ أما الايطاليون الذين يفوقونهم جسارة ، فيغيرون النغم والمقام فجأة ، ويأتون بوقفات مزدوجة ومضاعفة لسبعة مقاييس (مازوره) أو ثمانية على نغمات نعتقد أنها لا تستطيع أن تتحمل أقل رجفة ؛ إنهم يطيلون النغمة إطالة فذة ، حتى إن غير المعتادين عليها ، لا يستطيعون أن يملكوا أنفسهم من الغيظ فى بدء الأمر من هذه الجرأة التى يعتقدون فى النهاية أنهم لن يوفوها حقها من الاعجاب . . . » وجماع القول ، « إنهم يلقون الذعر بقدر ما يلقون الدهش فى ذهن المستمع ، الذى يظن أن « الكونشرتو » كله سوف يقع فى نشاز سريع ، وبدا يستثيرون اهتمامه بالخراب الذى يبدو كأنما يهدد الموسيقى كلها ، ثم سرعان ما يطمئنونه بزلات منتظمة ، لدرجة أن كل مستمع يدهش لرؤية التوافق كأنما يبعث فى نفس هذا النشاز ، ويستمد القسط الأكبر من جماله من ذلك الشذوذ الذى كان يبدو أنه يعمل على دماره . . . (١) »

متعة تفيئها الجرأة ، متعة نتوصل إليها على الأقل بتوهمنا أننا نخرق القيود المقدسة ، متعة تهم كياننا الجسدى ، حيث تختلج أعصابنا اختلاج الكمان تحت القوس : تلك هى المتعة التى قدمها لنا كثير من الملحنين الايطاليين — الذين حتى أسماؤهم كانت رنانة — والذين « فتنوا أوروبا بأسرها بانتاجهم الرائع » ، وعندما كان تلامذة سكارلاتى — أشهر أولئك الملحنين — يسألون أستاذهم عن سبب هذا التفضيل أو ذاك أو عن سبب هذه النصيحة أو تلك ، لم يكن لديه إلا جواب واحد : لأن الاحساس شئ جميل *Perchè fa buon sentire* .

(١) راجنيه Ragueneit ، موازنة بين الايطاليين والفرنسيين فيما يتعلق بالموسيقا والأوبرا ، ١٧٠٢ .

## الفصل الرابع

### العناصر القومية والشعبية والغرزية

لقد حاولنا أن نرى كيف تعمل بعض القوات ، التي تعارض ، بكيانها نفسه ، في ألا تكون أوروبا إلا نقداً ، وتحليلاً ، إلا منطقاً وعقلاً : استعداد للمستقبل ؛ استعداد غامض للانتقام — الذى لم يحن وقته بعد — للحساسية والخيال . لقد نظرنا إلى هذه القوات ، كما هى عليه ، قابلين ، مسجلين مظاهر هذه الحياة الملموسة ، في تنوعها المبهم . هل يمكن الآن أن نشرف عليها ، وأن نميز ، من وجهة نظر أعلى ، بعض المبادئ التي تحب عناصر المقاومة هذه أن تتجمع حولها ؟

\* \* \*

شعور الفوارق القومية : من يستطيع أن يستأصله ؟ إنه يدخل في الموضوع فيما لا تقبل أى نقص ؛ إنه يصدر عن أسباب يعرفها العقل ، وعن أسباب أخرى لا يعرفها العقل .

طريقة واحدة في التفكير ، وبالتالي طريقة واحدة في التحرير ، تسعى لكي تفرض نفسها على كل البلاد : النظام ، الدقة ، الحكمة المنظمة ، الجبال المتين الذى يكتسب بالصبر الطويل والجهد المكين : هذه حقيقة أولى . لكن أليست الحقيقة الثانية أن كل بلد كان يفسر على طريقته ، هذا المبدأ العام ، وبذا تظهر فوارق محسوسة ، بل قل اختلافات ، في هذه الوحدة المرغوبة ؟ فمثلاً : قبلت إنجلترا الكلاسيكية ، من جهة تحت تأثير فرنسا ، ومن جهة أخرى لأنها كانت تزوم إصلاحاً داخلياً ينظم قوتها . بيد أن هذا لم يكن أبداً

إلا كلاسيكية بريطانية ؛ كلاسيكية منفصلة ؛ كلاسيكية اصطلاحية (١). ولنضرب في الحال مثلاً بينا . يعد سويفت من الكلاسيكيين ؛ والواقع أنه شارك في ضبط النثر الانجليزي إلى حد كبير ؛ وهو يشرح في المدارس ، ولأريب في أنه سيشرح فيها على الدوام ؛ إنه أوتي تلك المتانة في الملكة ، تلك العبقرية التي لا تنكر والتي تجعلنا لا نتردد في عده من بين أكبر كتاب شعبه ؛ وسع ذلك فكم يبدو كلاسيكياً غريباً في نظر الفرنسي ، اليوم ؛ ومن باب أولى في نظر الفرنسي الذي كان يقسم بهوالو ! فلنتصفح « قصة البرسيل » ؛ ولنحاول أن نضع أنفسنا محل قارئ من القارة ، بما هو عليه من حالة ذهنية في عام ١٧٠٤ ؛ ولنتخيل دهشته . فأولا ، أي اختلال ! هذا الرجل لا يعرف أصول التأليف ؛ إنه يتبع الفكرة الأولى التي تمر بذهنه ، ويجيد عنها ، ثم يجيد : كما لو كان يجهد تلك الوسيلة الهامة لفن التحرير التي تسمى التسلسل . إنه لا يصغى إلا لهواه ؛ واستهلاته أطول من عروضه وبياناته ؛ وليس لديه أي احترام للمنطق القطعي ؛ وذلك يجعله يبدو كما لو كان يستخر منا . « بعد ما ألقيت بنفسي في تلك الانحرافات الواسعة ، أعود إلى الطريق معتزماً تتببع موضوعي خطوة خطوة حتى نهاية رحلتي ، سالم يعرض لذهني مشهد ظريف .. » ماذا تقول في مؤلف يستطرد في مدح استطراد ؟ وأي صور خارقة للعادة ؟ أي شذوذ ! أي جنون في الخيال ! « إن الحكمة « ثعلب » ، كثيراً ما نطارده بلا جدوى ، إذا لم نجبره على الخروج من جحره ؛ الحكمة « قطعة من الجبن » تزداد حلاوتها كلما كانت قشرتها سميكه ، متينة ، مقززة ؛ الحكمة « شوكلاتة » تزداد لذتها كلما اقتربنا من عمقها . الحكمة « دجاجة » لا بد من أن تحتل صوتها المزعج لأنه يتبعه بيضة ؛ الحكمة تشبه « جوزة » ، إذا أنت لم تحسن اختيارها كلفتك سنا ، ولا تأخذ منها إلا دودة . . . »

ثم ما هذا الهوس في مهاجمة كل شيء وتدسير كل شيء ؟ إنه يهاجم الكاثوليك أولاً ، ثم اللوثريين ، وأتباع كالفين ، والمتحمسين من كل نوع ؛ إننا لانضمن أبداً ، أنه بعد سلاطفته لنا ، لا يعضنا ؛ إنه يهتاج ، ويستولى عليه الغضب ،

(١) أنظر في هذا الصدد الملاحظات النفاذة للويس كازاميان في « تاريخ الأدب الانجليزي » بقلم ا. لوجوى ، ل. كازاميان ، ١٩٢٤ ص ٦٩٤ .

ويشتم ويسب : إنه أرسنوفان (١) مجنون . وما هذه الاستعارات الدائمة ؟ !  
وتلك السخرية ؟ ! إنها لا تنتهي . وهذه الدعاية القاسية ! « لقد رأيت في  
الأسبوع الماضي جسد امرأة مسلوخة الجلد ؛ ولا يمكنك أن تتصور كم كان  
هذا النوع من العرى في غير صالحها . . . » .

كم من انجليزى ، وقد اعترف بقيمة القواعد الكلاسيكية ، بل حاول أن  
يجارياها ، استشعر في صميم قلبه أسفا على الحرية المفقودة ! كم منهم من فكر  
أن أرسطو ومن بعده هوراس ، كان فيهما الكفاية ، وأنه لم تكن هناك حاجة  
إلى التزام الصرامة والصلابة الفرنسية ! « كأننا لكي نحصل على غسل شهى ،  
قصصنا أجنحة النحل ، وأجبرناها على التزام خليتها ، أو على عدم الابتعاد  
عنها . . . النحل تريد أن تنطلق في الريف ، كما تنطلق في البساتين ، لكي  
تختار بنفسها الزهور التي تروقها . . . (٢) »

ويزداد الاختلاف بروزاً ، ويصبح عنيداً بل شديداً ، حين لا يتعلق الأمر  
بالأدب بل بالأخلاق ؛ أو بمعنى آخر حين يتعلق الأمر بالدفاع عن ميلاد  
آسن وأعمق ، عن عادات متأصلة ، عن كيان نوعى خاص . عندما نطالع  
قصص أو كوميديات زمن كان يقبل ، على كل حال ، وإلى حد ما ، نموذج  
المؤانسة الفرنسية ، فاننا ندهش لشدة رد الفعل . إن فرنسا تمثل فيها كوقحة ،  
قد خلفت للندن أسانذة الرقص ، وخدمها الفاسدين ، ووصيفاتها الفاسقات ،  
وتجار البدعة ، ونساءها المغامرات ، ونبلاءها المزهوين الذين يستعرضون  
أساليبهم الجميلة بجماعة ، والذين ليسوا إلا جناء خداعين . إن الانجليز يعرضون  
مقابل هذا ، الانجليزى الفاضل ؛ البسيط ، الصارم ؛ وهذه الصرامة نفسها  
تعرض كمنضيلة . من الأفضل أن يحتفظ المرء بصراحة كلامه ، وخشونة سلوكه  
وقوته البكر ، بدلا من أن يستسلم للفساد تحت تأثير قوة أجنبية ، تروم أن  
تجعل منه رجلا آليا ، عديم الرأى ، منافقا ، « جيلا » . هكذا يظهر الفرنسيون  
والفرنسيات في كثير من المسرحيات ، في دور المنفترين : أشخاص سخفاء ،

(١) الشاعر الهزلى اليونانى الشهير ، وقد صار فى الأدب مثالا للكاتب الذى يهاجم  
بشدة ، ويسخر من نقائص معاصريه . [ المترجمان ]

(٢) وليم تمبل ، عن الشعر ، فى « متنوعات » ، ١٦٩٢ - ترجمة فرنسية ، أوترخت ،

١٦٩٣ ، ١٦٩٤ . أمستردام ، ١٧٠٨ .

سهمتهم أولاً إثارة مرع الجمهور، ثم تبين قيمة المزايا ، المزايا الإنجليزية المتينة . وتشكو إيطاليا من عبوديتها لفرنسا ؛ والواقع أنها أصبحت أمة لها ، إلى حد ما . ولكن هنا أيضاً ، فلنحذر التوكيدات المطلقة . فلا يقتصر الأمر على أن بعض شعرائها يحتفظون بفكرة الوحدة الرومانية قائمة حية ، فكرة أن شعب « الغال » ليس على كل حال إلا طارئاً متأخراً ، والأسل في عودة عهد يسترد فيه السلطان الحقيقي حقوقه فحسب ؛ بل مادمننا قد ذكرنا الكلاسيكية ، فإن علماء إيطاليا يطالبون بحقوق كلاسيكية إيطالية ، سابقة في تاريخها على المذهب الفرنسية ، هي وحدها الشرعية ، الصحيحة ، النقية . إنهم يواصلون « النهضة » بعناد ، نهضتهم هم : من يستطيع أن ينكر فضلهم فيها ؟ بينما يسعى الشعراء إلى تقليد كورنيل ورامسين ، معلنين عزمهم صراحة على النجاح أكثر مما نجحوا ، نراهم يرددون أنهم يرغبون في البقاء مخلصين لروح ، ونموذج التراجيدية الإغريقية : الوحيدة التي يحسب لها حساب ، والتي آلت إليهم ملكيتها بحق الاكتشاف والاستثمار الأول . وبعد ، فإذا فعلت فرنسا ؟ لقد شوهت ، وأفسدت تلك النماذج النبيلة . لقد خنثت التراجيديا العتيقة ، جعلتها أنيقة ، وأعطت للتعبير عن الحب مكانة زائدة عن الحد . إن الأستاذ العظيم لا يزال هو سوفوكليس : إليه ينبغي أن نعود .

\*\*\*

وبدأت الشعوب تتحارب أيضاً ، لاسترداد حق الأسبقية في الزمن . وعندئذ حاولت جميعها النزول إلى أعماق ماضيها ، لاستحضار وثائق العرافة . كلها تملك أقدم لغة ، أقدم شعر ، أقدم نثر ، أقدم حضارة . وأخذ كل شعب يؤكد فخوراً ، أن جيرانه ليسوا إلا مدعين ، محدثي نعمة .

ولم يبذل أى بلد جهداً شجاعاً قدر ما بذلت ألمانيا في هذا السبيل . لم تكن إلا ترايا ، كانت مسحوقة ، ذليلة . كانت تعاني كل أنواع النفوذ ، وليس لها أى نفوذ ، ولذا لم تعد تبدو قوة معنوية .

ولكنها دافعت عن حيويتها الغامضة ؛ ولتوطيد كيائها ، كانت تجادل في كل الجبهات . الوحدة ؟ سوف تستعيدها بسهولة باصلاح داخلي ، كما قال بوفندورف ، كما قال ليبنتز - القانون ؟ ألم يكن هناك قانون جرمانى أقدم

وأسمى من القانون الروماني ، ومن القانون الاكبرى ؟ القانون الروماني ، القانون الاكبرى ، ذلك كل ما نعلمه في الجامعات ؛ أى خطأ كبير ؛ لقد حان الوقت لكي نرد إلى القانون الأهلى القومى سكانته — اللغة ؟ لكن اللغة الألمانية كانت فى قدم وفى جمال اللاتينية ، واليونانية ، وأية لغة كانت : إن اللغة الألمانية قديمة قدم الدنيا . — الأدب ؟ إن الأدب الألماني لم يكن يقل عن أى أدب آخر . ذلك ما أثبتته فى عام ١٦٨٢ ، العالم مورهو فيوس . كم بذل من جهد ، كم جمع من براهين ! كم كنت نشعر ، فى كل صفحة من صفحات كتابه الدسم ، الضخم ، بحب الوطن الألماني ! كان يقول إن ألمانيا كان لها شعراء فى ذروة المجد ، نسيناهم ظلماً ، مثل هانز تراخ ، وشعراء أقدم منه ، يطالب بهم أولاً وس رودنك لاسكندناوة بدون وجه حق . وكان لفرط حماسته ، يستدل استدلالاً غريباً : كان لألمانيا شعراء لم يبق لهم أى أثر ، ولكن هذا لا يعنى أنهم لم يكن لهم وجود : بل على النقيض ، لابد من أنه كان لهم وجود ، مادام الشعر فى كل الشعوب هو أول صورة للأدب ؛ وبالتالي فإن لهم وجوداً ، سواء جهلناهم أو لم نقف على وجودهم . . . .

إن هذه اللغة الألمانية التى تملك قوة اللغة الاغريقية ، وعظمة اللغة الرومانية ، وجمال اللغة الفرنسية ، وفتنة الايطالية ، وغنى الانجليزية ، ورفعة الفلمنكية ؛ إن هذه اللغة ستعطى — كما يرجو محاسوها المتحمسون — روائع أدبية سوف تجبر أوروبا الغربية على الاعتراف بمزيتها . أى صيحة انتصار ! حين ظهر فى عام ١٦٨٩ « أرمنيوس وتوزنلدا » تأليف كاسبرز فون لوهنشين . أخيراً ظهر مؤلف عظيم ، وفى للوطن *patria amantissimus* ، قد بحث ووجد موضوعاً جديراً بالشعب الجرمانى ؛ إنه مجدد ذلك البطل أرمنيوس الذى قاوم روما ، لا فى بدايتها الضعيفة ، بل إبان عنفوان قوتها ؛ إنه يرد لألمانيا إكليل الغار . صيحات الغبطة ، ودوى النصر . . . .

نداء الحنين *Sehnsucht* ، أى صفة للنفسية الألمانية الأبدية أشهر منه ؟ إنه لا يفتقد فى زمن تزعم فيه أنوار المعرفة أن تبدد كل ظلمات النفس ، وأن تضىء حتى ما وراء الشعور . كان كريستيان وايز ، الشاعر ، عالم التربية ، الذى توخى فى كل تأليفه البحث المؤثر عما هو بسيط ، وطبيعى — يقدم كل سنة مسرحيات تمثل فى المدرسة التى يديرها ؛ ومن هنا ، متعة الطلاب الذين

أصبحوا ممثلين ؛ وزهو الآباء . وقد ظهر عذاب نفس غير قانعة ، في إحدى هذه المسرحيات « النفس المعذبة » *Die unvergnügte Seele* ، التي مثلت في عام ١٦٨٨ . إن فرتيمنوس ، الكريم المحتد ، الطيب ، الذي كان المنطق يقتضى أن يكون سعيداً في الحياة ، كان تعسفاً شقيماً ؛ يشعر بأنه غير قادر على التمتع بالمال الذى يملكه ، ولا يستطيع أن يقول ماذا ينقصه . فيحاول أن يملأ فراغ نفسه ؛ بالنساء ؛ بالصحبة المرحة من الندماء ؛ بالألقاب ؛ بمعاشرة كبار الفنانين ؛ لكن كل ذلك لم يجده ؛ فيقع فريسة اليأس ، يوشك أن يموت ؛ ألا راحة إذن إلا في الموت ؟ — وعند هذه النقطة ، تنقلب المسرحية إلى موعظة أخلاقية ، فتفقد فائدتها السيكولوجية . ويمر فلاحان ، « القانع والمطمئن » *Contento et Quiete* ؛ وقد عرفا صروف الدهر ، التي كانت كبيرة ، ولكن ذلك لم يقلل من تذوقهما للحياة ، إذ لم يطلبوا منها إلا ما كان في وسعها أن تعطيه ؛ فيعطيان درساً لفرتيمنوس ، الذى يصغى إليهما ، ويتوب .

إن النفس غير القانعة لا زالت خجولا ، متواضعة ؛ تعوزها الكبرياء ، فهي لا تعد نفسها ذات امتياز بل تعتقد أنها قابلة للشفاء . ولكننا نعلم أن فرتيمنوس سيكون له خلفاء ، سيذهبون في ضجرهم إلى أقصى درجاته ، وسيستشهدون بالدنيا وبالله ذاته على تعاستهم ، وأن « القانع » و « المطمئن » لن يسعفاهم عندما يعتززون بمفارقة هذه الدنيا التي لا تليق بهم .

لم يدر بخلد نقاد ذلك الوقت ، الذين أعجبوا « بأرسنيوس وتوزسيلدا » ، أو بأشعار كرسيتيان ويز العديدة — أن ألمانيا كانت قد أنتجت رواية من أروع الروايات ، ترجم فيها لأول مرة عن نفس جماعية : الرجل البرى ، *le Simplicissimus* لجريملسهوزن . لعلها تشبه روايات الأشقياء ، بالمغامرات العديدة التي يخوضها البطل ؛ لكن فيها لذة محلية عميقة كل العمق ، حتى إنها تحددت المترجمين ، ولا زالت تتحدثهم إلى الآن في بعض البلاد كفرنسا . موضوعها ذكريات حرب الثلاثين ، إتلاف الحصاد ، نهب القرى ، التنكيل بالفلاحين ، النار في كل مكان ، الدماء في كل مكان . موضوعها العقل البرى السليم ، الملقى به في وسط مدينة فاسدة ، تغريه وتغويه ، ولكنه ينتهى مع ذلك بالغلبة عليها . موضوعها الايمان ، الذى يخرق الأرض كأنه غاية من التماثيل الرمزية ، الذى يعى أنه يعيش وسط وفرة من الأوهام الوقتية ، توافقاً

على الدوام إلى الحقائق الأبدية ؛ موضوعها المسيحي الذي يكسب السماء بمشقة ، بمروره بألف امتحان ، بالجهل ، بالخطيئة ، والتوبة ، والأمل الذي يسبق العبطة الأبدية : هذه الموضوعات تنمو ، وتتعاقب ، وتذوب وتستعيد نغمتها الأصيلة ، وتتسلسل في تدفق ونضرة ليس لها مثيل ، مترمة بفروسية شعب يعتقد جيرانه أن موته وشيك ، بينما يظهر ، على التقيض ، إرادة لاتلين في قوة أصلية .

ولم يكن الناس قد اخترعوا ، عندئذ ، نظرية تفوق جنس على جنس آخر . ولم يكونوا قد حللوا بعد ، مضمون هذه الكلمة : الوطن . بل حتى لم يكونوا قد كونوا فكرة واضحة عما يمكن أن يكون الشعب . ولم يكونوا قد أضافوا بعد ، إلى المشاعر التي يولدها في النفوس نداء الأرض وقباب الأجراس ، عمل العقل الذي يفسرها ويبررها . ولكن هذه المشاعر كانت حية في النفوس ؛ وبمجرد ما كان إيطالي من إيطاليا الممزقة ، أو ألماني من ألمانيا المفرقة ، أو بولنيسي من بولندا التي تحارب نفسها بنفسها ، أو إسباني من إسبانيا الغافية ، يعتقد أن أحداً قد مس مزية بلده أو حتى مجده الخارجي ، كان يبتدىء الاحتجاج والنزاع ؛ كان العقل الشامل المسوى يفقد حقوقه أمام الخصائص الأهلية .



وكننت تسمع أحياناً أغنية ، لا هي قصيدة مؤلفة بدراية ، ولا هي بغزلية ولا هجائية ، بل أغنية شبه بربرية : تذكر أن أحد ملوك اسكندناوة في القرون الوسطى - رينير لادبروج - وقد نهشته أفعى نهشة مميتة ، ترنم بأشعار باللغة الجرمانية القديمة ، قبيل سريان السم إلى قلبه ( ١ ) ؛ وكانت هذه الأشعار تستطيع ، بما فيها من غرابة ، أن تدهش أو تفتن معاصري وليم أورانج ولويس الرابع عشر . وكانت هناك أيضاً أغان شعبية ترد من أقصى الأوصقاع ، من بلاد أولئك السكان الذين لا شبيه لهم ، سكان القطب ، اللابلانديين . أغنية صحراء الجليلد :

( ١ ) وليم تمبل مقال عن « الفضيلة الباسلة » في « المتنوعات » ، القسم الثاني ، لندن

١٦٩٠ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ W. Temple, Essay upon Heroic Virtue

*O soleil levant, dont le joyeux rayon  
Invite ma beauté aux plaisirs champêtres,  
Dissipe la brume, éclaircis le ciel,  
Et amène devant moi ma chère Orra.*

*Ah! si j'étais sûr de la revoir, ma bien-aimée,  
Je grimperais jusqu'à la plus haute branche de ce sapin;  
Là-haut, dans cet air qui doucement frissonne,  
Et tout à l'entour, je regarderais sans trêve... (١)*

أو أغنية الرنة :

*Hâte-toi, mon renne, et accomplissons d'un pas agile  
Notre voyage d'amour à travers cette lande désolée.  
Hâte-toi, mon renne, tu es encore, encore trop lent,  
Un amour impétueux exige la vitesse de l'éclair... (٢)*

ولم يكن هذا شيئاً مذكوراً ، وسط الأشعار العديدة المنظومة وفقاً لأحسن القواعد ؛ ولقد كانت ثقل عن ذلك ، لو لم يدر بخلد أديسون أن يهتم بهذه الأشعار الفجة ، وأن يعترف باعجابه بها . أنعم بأغنية Chevy Chace القديمة ، وبالقصيد الرقيقة « طفلان في الغابة » : لقد كانتا بريئتين وجميلتين ؛ وكان يسره أن يسمع ، وهو يخترق المجلثرا ، تلك الأغاني التي يتوارثها الابن عن الأب ، والتي تعد فتنة البسطاء (٣) . صحيح أن أديسون يدخل هوميروس وفرجيل ، تبريراً لذوقه ، ليبين أن في تلك الأشعار ما في الأوديسا والاناييد من مزايا . ولكنه لحسن الحظ ، لم يصر على هذا الاثبات العلمي ، بل عاد إلى مدح الطبيعي ، الفطري ، التعبير الساذج للفلاح يعود من حرثه ، مردداً أغنية - تعبير الروح الشعبية . « هذه الأغنية هي صورة بسيطة للطبيعة ،

(١) أيتها الشمس المشرقة التي تدعو أشعتها المرحمة - حسناً إلى المتع البرية - اقشعي

الضباب ، وأضيئي السماء - وإلى بالعزيزة أورا .

آه ... لو كنت واثقا برؤية حبيبتى مرة أخرى - لتسلقت أعلى غصن لشجرة الصنوبر هذه - عالياً هنالك ، حيث يخفق النسيم الرقيق - وتطلعت فيما حولى على الدوام ...

(٢) أسرعى يارنتى ، ولنتم بخطوة سريعة - رحلة غرامنا خلال هذه البيداء الموحشة -

أسرعى يا رنتى ، إنك لازلت شديدة البطء - إن الحب الجارف يتطلب سرعة البرق ... (سبكتاتور رقم ٣٦٦ ، ٤٠٦) .

(٣) سبكتاتور ، رقم ٧٠ ، ٧٤ ، ٨٥ .

مجردة عن كل عوائل الفن وزخرفه . . . ؛ وهي لا تروقنا إلا لعين هذا السبب : إنها صورة من الطبيعة . . . »  
 وفي قطب آخر للحياة ، كانت تسود أيضاً ، أو تسرى على الأقل ، فكرة أن السلطة الشعبية هي وحدها الشرعية ، وأن السلطة الملكية لا تقوم إلا بتفويض منها . وحتى في مملكة فرنسا ، كان هناك قوم يذكرون بأن شعوب « الفرنجة » Les Francs كانت قد غزت شعوب الغال ، وأن الفرنجة كانوا يعقدون اجتماعاتهم في ميدان مارس ، وقد اعتادوا أن يعينوا لهم رؤساء ؛ وهكذا لم تعد السلطة تستند على بعض امتياز إلهي ، أو تقليد روماني ، بل على مبايعة من جانب كتلة المحاربين لسيد يختارونه بحرية . فالشعب ، كديموقراطية ، لم يكن له بعد وجود ؛ ولكن فكرة السلطة الشعبية كانت تتكشف ، سليئة بالمستقبل .

\*\*

الغريزة : إنها لم تكن قد اكتسبت بعد عطف الناس ، مادامت تنفر المسيحيين وتقلقهم ، وسادام الفلاسفة لا يزالون يترددون في حسابان الطبيعة خسيرة تامة الطبيعة ، مفضلين جذبها نحو العقل . ولكنها على الأقل لم تكن غائبة تماما عن المشاغل الجارية . حينما يشهر طبيب بالجامعة ومبادئها ، ويمتدح طريقة علاج المرء لنفسه بنفسه ، وحفظ الصحة بالغريزة . وحينما ، يتكلم رجل مبتكر عن الالهام الشعري ، فينسب مصدره إلى نوع من الجنون furor ، إلى جنون فائق ، إلى الغريزة . وفي هذا الصدد ، كان هناك عامل مضايق ، يتملص من الجهود الفكرية ، والقيود الاختيارية ؛ عامل لقي العقليون عناء كبيراً ليخضعوه للطاعة : الجليل الجبال Le sublime . لما قال الناس إنه ليس إلا الحقيقي والجديد مجتمعين في فكرة كبيرة ، ومشروحين بأناقة ودقة ؛ وإنه بغير الحقيقي لا يمكن أن يوجد جمال جليل ، وبالتالي أي جليل : كانوا يشعرون أن الدعوى لم تنته بعد . لذلك كان يدفعهم ولع لا يقنع إلى سؤال لونغين (١) ، الذي لم يخش أن يعترف هذه الكلمة الصعبة ، والذي كانت في صفته هيبية الأزمان القديمة . الجليل

(١) لونغين : Longin عالم البلاغة اليوناني مؤلف « بحث في الجليل الجبال » *Traité du sublime* الذي ترجمه بوالو (٢١٣ - ٢٧٣) . [ المترجمان ]

الجمال — أليس بالرغم من كل شيء ، قيمة تخرج إلى حد ما عن رقابة العقل ؟  
 ماذا كانت تلك المناقشة حول أرواح الحيوان ، التي استمرت منذ ديكارت ،  
 والتي لم تكن قد أوشكت على الانتهاء ، وقد دعت إلى المباشرة المفتوحة الباب  
 دائماً ، أبطالا من كل نوع ، — ماذا كانت ، إن لم تكن احتجاجا في صالح  
 الغريزة ، وإن كان غامضاً ؟ لما جعل الناس يدافعون ، فلانا عن جواده  
 العزيز ، وعلانا عن كلبه الأليف ، لم ينسبوا للحيوان روحا شبيهة بروح الانسان ؛  
 لم يطالبوا لها إلا بادراك جزئى : ولكنه كان واضحا أنها تحب ، وتتعذب ،  
 وأنها لم تكن آلات ، مادامت الآلات لا صلة لها بالشعور : قال لافونتين منذ  
 ذلك اليوم ، في خطابه إلى مدام لاسابليير إنه ينسب إلى الحيوان :

*Non point une raison suivant notre manière,  
 Mais beaucoup plus aussi qu'un aveugle ressort :  
 Je subtiliserais un morceau de matière  
 Que l'on ne pourrait plus concevoir sans effort,  
 Quintessence d'atome, extrait de la lumière,  
 Je ne sais quoi plus vif et plus mobile encor  
 Que la flamme ...*

*Je rendrais mon ouvrage*

*Capable de sentir, juger, rien davantage,  
 Et juger imparfaitement ... (١)*

كان « ماجالوتى » عالم الطبيعة الفلورنسى ، وروح مجمع « سيمنتو » أكثر  
 جسارة ، في استشهاده ضد ديكارت بجنبا للحيوان ، « الحب البالغ ، الجنون ،  
 والذي كثيراً ما يبدو في غاية الجنون والغباء ، الذى نكنه لـكـلب ، أو هر ،  
 أو جواد ، أو ببغاء ، أو عصفور . » ولقد قال « دانتي » :

*Amor, ch'è nullo amato amar perdonna ...*

وقال « لوتاس » Le Tasse :

*amiamo or quando  
 Esser si puote riamati amando ;*

(١) لا عقلا كالذى نعهده — بل شيئا أكثر من محرك أعمى :  
 لو أنى بخرت قطعة من مادة — حتى تصبح شيئا لا نستطيع تصوره بلا جهد ،  
 جوهر ذرة ، أو خلاصة ضوء — أو شيئا أكثر حيوية وحركة — من اللهب ...  
 لجعلت عملى — قادراً على الحس ، والحكم ، ولا شيء أكثر ، لكن حكما غير  
 كامل ...

« نحن لا نحب إلا إذا كان محتملاً أن نحب » . وإذن فإدمننا نحب الحيوان ، فلا بد أنه يحبنا ؛ وإذن فهو لا يخلو من الاحساس . . . — بتلك الأصوات المتشعبة ، وفي تلك الظروف المختلفة ، كان يظهر فعل ذلك الجزء من الوجدان الذى يتوق إلى الاحساس : فقاعات تصاعد من أعماق المستنقعات ، وكثيراً ما تفضى على أديم المياه .

أيتها العرائس السعيدة ، أيها الرعاة السعداء ، الذين يعيشون حياة وادعة على مقربة من العيون ، وفي عزلة الغابات ، كم كان يحسدكم الناس في هذه الأوقات المجيدة ! ويا أهل الأندلس القديم البسطاء ، يامن كنتم تستغنون بمثل تلك السهولة — في أحلامكم اللذيذة — عما فى المدنية من مغالاة فى الرقة والترف ؛ كم كانوا يمتدحون سعادتكم ، التى يجهلها أولئك الذين كفوا عن اتباع قوانين الطبيعة ! « أوه . . . ما أبعد هذه الأخلاق عن الأخلاق الباطلة الطموحة للشعوب التى نظنها أوفر الشعوب حكمة ! لقد بلغنا من الفساد حداً لا تكاد سعه نتصور أن هذه البساطة يمكن أن تكون حقيقية . نحن ننظر إلى أخلاق هذا الشعب كأنها أسطورة جميلة ، ولا ريب أن أخلاقنا تتراءى له كتخلم مرعب ! » — أيها الهمجى السعيد ، بأى طهجة ثورية أعلن الناس أنك ينبغى أن تكون مثلاً للحياة الكاملة ، وأن الأوربى ينبغى أن يجعل من نفسه هيرونيا (١) ! لقد أعلن أذكى الناس إفلاس العقل :

*Source intarissable d'erreurs,  
Poison qui corromps la droiture  
Des sentiments de la nature,  
Et la vérité de nos cœurs ;  
Feu follet, qui brilles pour nuire,  
Charme des mortels insensés,  
Esprit, je viens ici détruire  
Les autels que l'on t'a dressés ... (٢)*

(١) Hurons : قبيلة من مواطنى شمال أمريكا ... [ المترجمان ]

(٢) شوليو Chaulieu قصيدة ضد العقل ، ١٧٠٨ .

يامنع الضلال الذى لا يغيض — أيها السم الذى يفسد استقامة الشاعر الطبيعية ،  
وحقيقة القلوب ؛ — أيها اللهب الشيطانى الذى يلمع ليغوى ويؤذى ، — يافتنة  
العافلين ، — أيها العقل ، لقد جئت لأدمر الهياكل — التى أقيمت لك ...

*Esprit ! tu séduis, on t'admire,  
Mais rarement on t'aimera ;  
Ce qui sûrement touchera  
C'est ce que le cœur nous fait dire ;  
C'est ce langage de nos cœurs  
Qui saisit l'âme et qui l'agite ;  
Et de faire couler nos pleurs  
Tu n'auras jamais le mérite . . . (١)*

أما الناس الأقل إحساساً ، ولكنهم أحذق في تنسم الريح ، فقد أعلنوا  
سساوى العقل :

*C'est elle qui nous fait accroire  
Que tout cède à notre pouvoir ;  
Qui nourrit notre folle gloire  
De l'ivresse d'un faux savoir ;  
Qui par cent nouveaux stratagèmes  
Nous masquant sans cesse à nous-mêmes  
Parmi les vices nous endort :  
Du Furieux fait un Achille,  
Du Fourbe un Politique habile,  
Et de l'athée un Esprit fort.*

*Mais vous, mortels, qui dans le monde  
Croyant tenir les premiers rangs  
Plaignez l'ignorance profonde  
De tant de peuples différents, (٢)*

(١) أيها العقل ! إنك تفتن وتعجب - ولكن يندر أن تحب ؛ - إن الذى يؤثر  
بكل تأكيد ، هو ما يمليه علينا القلب ؛ - إن لغة القلوب هى التى تملك  
النفوس ؛ ولن يكون لك أبداً - فضل إسالة الدوع . . .

(٢) جان باتست روسو Jean-Baptiste Rousseau القصيدة التاسعة ، إلى المركيز  
دى لافار .

هو الذى يجعلنا نظن - أن كل شىء يذعن لقدرتنا - هو الذى يغذى عظمتنا  
الجنونية ، بنشوة علم باطل - هو الذى يعمينا عن حقيقة أنفسنا - بمائة جيلة  
حديثة - فيستبقينا فى أحضان الرذيلة - يخلق من كل نائر « أشيلا » - ومن  
الخداع سياسياً حاذقاً - ومن الكافر « عقلاً قويا » .

أما أنتم يا من تظنون - أنكم فى مقدمة الضعوف فى الدنيا - فتشفقون على  
الجهل العميق ، لكل تلك الشعوب - يا من تخلطون بين الحيوان -

*Qui confondez avec la brute  
Ce Huron caché sous sa hutte  
Au seul instinct presque réduit :  
Parlez : quel est le moins barbare  
D'une raison qui vous égare  
Ou d'un instinct qui le conduit ? (١)*

سندئذ ، بدأ يظهر تعبير مؤثر لهذا الشعور ، لهذه الحاجة إلى اطراح كل الخدع المتكتلة : عبء القرون الذي يثقل كاهلنا ، والنفاق الذي ندعوه أخلاقاً دون أن نصدق بها . كان هناك ذات مرة إنجليزي يدعى « توماس إنكل » ، ثالث أبناء أحد مواطني لندن الأثرياء ؛ أبحر إلى بلاد الهند الشرقية للتجارة . وفي أثناء رسو السفينة في أحد الثغور ، اغتال الهنود فريقاً من جماعته ؛ وهرب واختبأ ، واكتشفته هندية ، فتية جميلة ، اسمها « ياريكو » . ولقد أحببت ذلك الأجنبي ، ذلك التعس ؛ ووهبته نفسها جسماً وروحاً ؛ وتولت غذاءه واستبقته ؛ فوعدها بأن يصطحبها إلى إنجلترا إذا تهيأت الفرصة . وذات يوم لحا شرع سفينة فأشارا إليها : واقتربت السفينة ، ونزل بعض البحارة ثم اقتادوهما إليها : فكانت السلامة . ولكن على طول الطريق ، جعل توماس إنكل يحلم . ماذا سيفعل بهذه المرأة ؟ لقد أضاع وقته ، وماله ؛ اعترم أن يبيعها كأمة في أقرب ميناء . بكت الهندية وأنت ، وحاولت أن تمس شغاف قلب عشيقها ؛ ولما كانت حاملاً فقد باعها توماس إنكل بثمان غال . هكذا يتصرف المتمدنون (٢) . . .

وذات يوم صادف فونتبل الغريزة في الطريق ؛ فأخذه الدهش ، بل تكدر لهذا الظهور . « أعنى بكلمة غريزة شيئاً مضافاً إلى عقلي ؛ يولد مفعولاً مفيداً لحفظ كياني ؛ شيئاً أفعله دون أن أعرف لماذا ، ومع ذلك فهو يفيدني كل الفائدة : وفي ذلك كل أعجوبة الغريزة . . . » ولما كان لا يمكن أن يقبل مثل هذا الخروج على المنطق ، ومادنا قد اتفقنا على أن « العجيب » ليس له أى حق في الوجود ، فإنه يتوسل بأصعب رياضة ذهنية ، وبأحذق البراهين

(١) وذلك الهيروني اللائذ بالكوخ - الذي يعيش على الفطرة - فلتكلموا : أيهما أقل بربرية - العقل الذي يضلكم - أم الغريزة التي تقوده ؟

ليثبت أن الغريزة ليست إلا عقلا يتردد ، عقلا لم ينتخب بعده ، بشكل واع بصير ، وسيلة من وسائل العمل المختلفة التي تعرض له : وسندئذ يعد فونتنل نفسه مطمئنا .

ويخيل إلينا أننا لازلنا بمبعدة عن « الغريزة الالهية » التي سيمجدها جان جاك روسو . لكن أقل مما نظن ، إذا نحن — بدلا من أن نبحت عند الذين لا يستطيعون العيش دون ترف الحياة — سألنا أصحاب الطبع الخشن ، وإذا وجدنا لدى سويسرى يدعى بيات دى سورا ، تصويراً أوليا لمقال روسو الشهير :

« منذ ما فقد الانسان شغله وكرامته ، فقد أيضاً معرفة ما يخصه ، وفي تلك البلبلة التي نعيش فيها ، لا نعرف ماهية كرامتنا ومشاغلنا . ولما كان النظام وحده هو القادر على أن يرد لنا هذه المعرفة ، فظنى أن هناك وسيلة واحدة للبقاء فى النظام : هى اتباع الغريزة التى تكمن فىنا . الغريزة الالهية التى ربما تكون كل ما تبقى لنا من حالة الانسان البدائية ، التى تركت لنا لاعادتنا إلى هذه الحالة . كل المخلوقات الحية التى نعرفها لها غريزة لا تخدعها أبداً . فهل الانسان ، الذى يفوق فى كماله كل هذه المخلوقات ، ليس له غريزة ، بحيث تشمل كل خلقه ، وبحيث يكون فيها من الوثوق بقدر ما فيها من الشمول ؟ لا شك فى أن له غريزة ، وهذه الغريزة هى صوت ضميره ، حيث يتصل الاله بنا ويحدثنا . . . (١) »

« الغريزة الالهية التى ربما تكون كل ما تبقى لنا من حالة الانسان البدائية ، التى تركت لنا لاعادتنا إلى هذه الحالة » : هل من الممكن أن نجلجل بنداء الرجل البدائى جلجلة أوضح وأعلى من هذه ؟

(١) رسالة عن الرحلات ، كتبت فيما بين ١٦٩٨ ، ١٧٠٠ . انظر إلى طبعة ش . جود ،

## الفصل الخامس

# سيكولوجية القلق ، استطيقا الشعور ، ميتافيزيقا الجوهر ، والعلم الجديد

## سيكولوجية القلق

لقد أمسك لوك عن الألعاب الكبرى ، كما قلنا ؛ ولما كان رجلا متواضعا ، فقد ترك البحث عن الحقائق السامية ، وقنع بالحقائق النسبية ، التي يمكن أن تلمسها أيادينا الضعيفة . وإن من يطلب منه التحليق العالى فى سماء الخيال ، لمخطئ فى العنوان ؛ فان لوك الحكيم لن يدلّه إلا على طريق أسين سالم نحو يقين متواضع ، طريق ممهد ، خال من النزوات .

ومع ذلك ، فأى نتائج مستقبلية ، فى توكيده هذا : إن الاحساس هو العمل الأوّلى للنفس ! لأن هذا التوكيد — إذا فكرنا فيه جيدا — يثير انقلابا فى القيم التدرجية التى كانت تبدو حتى ذلك الوقت أثبتت القيم الموروثة . فالأفكار النبيلة ، أجل الأفكار وأنقاها ؛ والمبادئ الأخلاقية ، ونشاط النفس ، كل هذا منشؤه الاحساس . والعقل الذى يؤثر على الاحساس نفسه ، ليس مع ذلك إلا عاملا ، عاملا معاونا : فلا حياة عقلية بلا حياة عاطفية تسيطر عليها . إن التابع يصبح سيدا ؛ إنه يستقر ، لقد فاز بحق الرشد وحق الاصابة ؛ وإن شهاداته لتسجل فى « المقال عن الادراك الانسانى » .

إنه ليس جوهر النفس — ولكن جوهر النفس يستحيل إدراكه ؛ والشئ المحقق أن هذا الامتياز لا يمكن نسبته ، بأى حال ، إلى الفكر . لو كانت النفس فى جوهرها فكرا ، لما كنا نراها تمر بمجالات مختلفة ( كما نراها فعلا ) ، منذ الانتباه وما يصحبه من مجهود كبير إلى حالة توشك فيها على الفناء . إن

الفكر يختفي اختفاء تاماً في أثناء النوم ؛ وهو حتى عند الرجل اليقظان ، يمر بلحظات من الضعف والغموض تقترب كثيراً من العدم : وهذا الاختفاء ، هذا التغير ، هذا الاقلال ، ليس من خصائص الجوهر ، بل من خصائص الفعل ، الذي يحتمل الانقطاع والاهمال .

بل أكثر من ذلك : إن سيكولوجية الرغبة والقلق لنتيجة لهذا الترتيب الجديد للقيم .

واعجباه ! هل كانت نفس « رجل العاطفة » من إعداد لوك ؟ وسانت برو ؟ وفرتر ؟ ورينيه ؟ (١) — إنهم جميعاً ليسوا من نسله المباشر ؛ ولكن ، في مختلف الأسباب التي تحول عقلية الأجيال المتتابة ، وفي تطور حالة نفسانية تنتهي بأن تطلب من القلب إشباع رغبات لم يحققها لها العقل ، — فلنحسب ، فلنحسب بلا تردد فلسفة لوك . هاك ما قالت هذه الفلسفة قبل أن ينتهي القرن السابع عشر :

« إن القلق الذي يستشعره المرء في دخيلته ، لغياب شيء قد يهيئ له متعة إذا كان موجوداً ، هو ما نسميه « رغبة » ، وهذه الرغبة تضعف أو تشتد ، بحسب ما يكون عليه قلقه من ضعف أو شدة . ولعله لا يخلو من فائدة أن نلاحظ ملاحظة عابرة ، أن القلق هو المحرك الأساسي ، إن لم يكن الوحيد ، الذي يثير اجتهاد ونشاط الناس . . . (٢) »

Uneasiness : تلك هي كلمة النص الانجليزي ، ولقد توقّف عندها المترجم ، بيبير كوست ، لأنه لم يجد مرادفاً لها في الفرنسية ؛ فترجمها بكلمة « قلق » *inquiétude* ، لعدم وجود ما يفضلها ، وكتبها بأحرف مائلة خاصة ، لبيان أنها تتضمن معنى خاصاً جديداً . وسيصادفها مراراً ، لأن لوك يصر عليها : « كل من يتأمل في نفسه ، سرعان ما يجد أن الرغبة بحالة من القلق ،

(١) سانت برو Saint-Preux بطل رواية « هيلويس الجديدة » أو جوليا *Julie* تأليف جان چاك روسو ؛ وفرتر *Werther* بطل رواية جوته « فرتر » ؛ ورينيه *René* بطل رواية شاتوبرياند (رينيه) . ويمثل فرتر ورينيه ، الرجل الذي يعيش في قلق وعذاب نفس ، بسبب قلبه المريض ، الذي يشتمل من الحياة المادية الملموسة ، ويبتغي أن يتخيل في أفق لامتناه . [المترجمان]

(٢) مقال عن الادراك الإنساني ، ١٩١٩ ، الكتاب الثاني ، الفصل العشرون .

لأنه من ذا الذي لم يشعر في حالة الرغبة بما قاله الحكيم عن الرجاء — الذي لا يفترق كثيراً عن الرغبة — والذي إذا ما طل يمرض القلب (أمثال ، الاصحاح الثالث عشر، ١٢) (١) ؛ وذلك بصورة متناسبة مع شدة الرغبة ، التي تصل بالقلق في بعض الأحيان إلى الدرجة التي جعلت راحيل (٢) تصيح : هبنى بنين ، هبنى ما أريد ، وإلا أمت ؟ (٣) .

ليس وجود شيء معين هو الذي يدفعنا إلى العمل ، بل عدم وجوده . إن أفعالنا رهن بإرادتنا ، ومحرك إرادتنا هو القلق . ونحن ، بدون القلق ، نقع في حالة جمود ونموت ؛ فعليه نتوقف آسألنا ، ونخافنا ، وأفراحنا ، وأحزاننا ؛ عليه نتوقف عواطفنا ؛ عليه نتوقف حياتنا . وسيعود أشياح لوك إلى هذا الموضوع ، حتى يصلوا به إلى أقصى سعته . سيعلم كوندريك — في شهادته لأستاذه ( وعنده أنه بين أرسطو ولوك لا توجد فلسفة جديدة بهذا الاسم ) ، أنه لا يزال علينا ، بعد لوك ، أن نثبت أن القلق هو المبدأ الأول الذي تنشأ عنه عادات اللمس ، والرؤية ، والسمع ، والحنس ، والتذوق ، والمقارنة ، والتقدير ، والتفكير ؛ كالرغبة ، والحب ، والكراهة ، والخوف ، والأمل ، والإرادة ؛ وأن القلق يولد كل عادات نفسنا وجسدنا . وسيمجد الرغبة ، ويعرف الضجر ، عذاب النفس . وسيعزز هلفسيوس قول كوندريك ، مصرّاً على قوة العواطف ، وعلى الأمل الذي يخلقه الضجر ، مبيناً أن العاطفيين يفوقون المتعقلين ، وأننا نصبح أغبياء بمجرد ما نقلع عن العاطفة . — لقد بحث الناس عن مختلف الوسائل لتأويل النفسية الرومانتيكية ، دون أن يدور بخلداهم أن يلتفتوا نحو لوك : إن لوك قد توصل إلى الانسيكلويديا ، إن لوك خلق علماء الأفكار ؛ هذا كثير . ولكنه أيضاً الرجل الذي لاحظ في النفس القلق الذي يعذبنا ، والذي جعل منه مبدأ إرادتنا وأفعالنا .

(١) « الرجاء الماطل يمرض القلب والشهوة التهمة شجرة حياة » ( العهد

القديم ) . [ المترجمان ]

(٢) « فلما رأت راحيل أنها لم تلد ليعقوب غارت راحيل من أختها وقالت ليعقوب هب

لي بنين وإلا فأنا أموت . » ( تكوين ، الاصحاح الثلاثون ) . [ المترجمان ]

(٣) مقال عن الادراك الإنساني ، الكتاب الثاني ، الفصل ٢١ ، ترجمة بيير كوست .

وحيث يشتغل لوك بالتربية ؛ حين يصنع مخلوقا بشريا ، سوحداً بين تجربته كمرّب وبين مثله الأعلى كفيلسوف ، فإذا عساه يسعى أن يربّي فيه ، إن لم تكن الاختيارية الطبيعية ؟ إنه يقف سوقف الثائر ، ويحتج على طريقة تنشئة الأطفال المتبعة فيما حوله . فهم أولاً ليسوا أشباحاً ، فلكل منهم ذراعان ، وساقان ، وصدراً ، وسعدة ؛ جسم ينبغى أن تقويه بمختلف وسائل التدريب ، لكي نجعله صحيحاً وسليماً . أما ذهنهم ، فيجب أن يحكمه العقل ؛ لا «الروتين» ؛ لا سلطة خارجية تعمل دون أن تقابلها موافقة نفسية ، ولا قاعدة تعسفية تطبق على المجموع دون تمييز . ذلك أنه في كل طفل ملكة طبيعية يجب أن يحسب حسابها . « يجب أن نذهب بالملكة الطبيعية لكل طفل إلى أبعد ما نستطيع . أما الشروع في إضافة ملكة أخرى إلى ملكته ، تختلف عنها كل الاختلاف ، فهو عناء لا ثمرة فيه . كل عمل من هذا القبيل ، لن يؤدي بنا على الأكثر إلا إلى صورة سيئة زرية ؛ إذ نرى فيها دائماً تلك الهيئة المنفرة التي يخلفها الاجبار والتكلف على الدوام . » — « إن الطبيعة البسيطة غير المصقولة ، المتروكة على سجيّتها ، خير من جمال سئ مصطنع ، ومن كل الأساليب المدروسة لاختفاء الخلق الطبيعي وإفساده بدلا من تقويمه . » ينبغى أن تؤثر الفضيلة على المعرفة ؛ لأن المهم في الحياة ، ليس أن نعرف الكثير ، بل أن نكون شرفاء طبيين . وفوق ذلك ينبغى ، لكي نودع في الطفل أقل المعرفة التي تلزمه ، أن نحسب حساب تلك الاختيارية التي لا يكف لوك عن التفكير فيها . علينا أن نختار المكان والساعة ، وملاءمة اللحظة ، واستطلاع الطفل . إن التعليم لو فرض كهمة إجبارية ، كحمل ثقيل ، يصبح مضايقاً غير مستساغ ؛ فلنستفد من هذا المزاج ، من ذلك الاستعداد الموقوت ، وسنرى كيف تسهل المهمة . يجب مساعدة الطبيعة وتقويمها وتوجيهها ، لكن دون أن نتجاهلها في ذلك شبهة ؛ ولنستعمل الحيلة قليلا عند الحاجة ، حتى يكون مظهرها أكثر طبيعية .

الفرد : هذا هو في الأصل ما يهّم لوك ؛ لا مدارس عامة . بل مرّب حكيم ، يحل محل الأب ، ويضحى بنفسه دون تحفظ ، لتلميذه . لا عقوبات جسدية ، تجلب المهانة والذل . أقل إجبار ممكن ، فيما عدا السنوات الأولى ؛ على أن نزيد الحرية مع سرور الزمن . يجب اتخاذ ألف تحوط بارع حول النبات

الصغير الذى يشق طريقه ؛ وحبذا ألف تدليل حاذق لتبرير الدروس التى نريد أن نودعها فيه . وفى هذه التربية التى تتراءى فى غاية البساطة واليسر ، بينما هى فى الواقع فى غاية التعقيد والكبر ؛ والتى نريد أحياناً أن تبلغ فى رواقيتها مبلغ الشدة ، بينما هى فى معظم الوقت تطلب من الحساسية كل شئ ، وتسمح لها بكل شئ ؛ والتى لا تكف عن الحديث عن الحقائق الواقعية مع أنها زاخرة بالأحلام ؛ فى هذه التربية التى هى برنامج مخصص لتلميذ ، وفى نفس الوقت رواية يسجل فيها الأستاذ ثورته ، وأسفه ، وآلامه ، ورغباته ؛ نرى هنا أيضاً الرجل الذى سيؤكد علنا ، بعد سبعين عاما ، إيثاره للوك : جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau .

### استطبيقا الشعور

« إن الذهن الفلسفى الذى يجعل الناس « متعقلين » إلى هذا الحد ، سيجعل شطراً كبيراً من أوروبا ما جعل القوط والوندل ( التيوتون ) منها فيما سبق . . . . أرى الفنون الضرورية ، مهمة ؛ والمعتقدات المكتسبة النافعة كل النفع للمجتمع ، تفتى ؛ والتفكير النظرى مفضلاً على الحياة العملية . إننا نتصرف دون أى تقدير للتجربة ، أصلح مرشد للجنس البشرى . والعناية بالأجيال المقبلة ، مهمة كل الإهمال . وكل النفقات التى تكبدها أجدادنا فى العقارات والمنقولات قد كنا نفقدها ، ولم نكن لنلاقى فى الغابات خشباً للبناء ، ولا حتى للتدفئة ، لو أنهم كانوا « متعقلين » بالطريقة التى نحن عليها الآن . » إن الذى يسمعون هذه الأقوال الجريئة هو الأب ديوبو Dubos . إن « تأملاته النقدية عن الشعر والرسم » التى ظهرت فى عام ١٧١٩ ، لنتيجة لدراسة بطيئة عميقة .

كان هناك فريقان ، الأول فريق أولئك الذين يريدون تحويل الفن نفسه إلى عقل صاف . ما هو الجميل ؟ ما هو الذوق السليم ، الذى يتيح لنا تمييز الجميل ؟ ما هو الجليل الجبال ؟ مسائل عويصة ! كان هناك الفلاسفة ؛ وليس الفلاسفة فحسب ، بل كل أولئك الذين لا يثقون إلا بالذهن الهندسى لاييجاد الحلول ، وإن لم يكونوا فلاسفة — سواء بحسب العادة أو الانسياق

أو البدع . — كانوا يقولون ، كما سمعناهم ، إن الجميل هو الحقيقي أو على الأقل شبه الحقيقي ؛ ومادام هو الحقيقة فهو يشارك من جانبه في الأخلاق والفضيلة ؛ وإن الذوق السليم يقوم على مبادئ ، على نماذج ، وبالتالي يستطيع أن ينطق بأحكام أكيدة طبقاً لقواعد ثابتة مكينة .

طبق "فلسفة الفن هذه في الحياة العملية : تصل إلى «التأكدم» Académisme .  
تقليد القدما . معرفة تامة لقواعد فنية ، على كل فرد أن يخضع مواهبه لها .  
دراسة الطبيعة : لكن في الوقت نفسه ، كيفية تقويم هذه الطبيعة وتنظيمها ، التي تبيع — في تفاصيلها — كثيراً من النزوات والأهواء . لقد أصبح لوبران Le Brun رسام لويس الرابع عشر ، الذي خلده النجاح والزمن ، والسلطة الملكية ، شبه مؤسسة ؛ إن لوبران هذا — الذي يذكرنا مجرد ذكر اسمه بمجموعة من اللوحات الفخمة المثلجة في إطاراتها الذهبية ، يعلم تلاميذه أصول التعبير : كيف يجب تصوير الغضب ، الدهشة ، والفرح ؛ أو — وهو الأصعب — التقدير ، الإعجاب ، التمجيل . من التقدير إلى الإعجاب : « لا يعترى الوجه إلا أقل القليل من التغيير في كل سلامحه ، وإذا حدث تغير ، فأنما يكون في رفع الحاجب ليس غير ؛ لكن بشرط أن يبقى الجانبان متساويين ، وتكون فتحة العين أوسع قليلاً من المعتاد ، وكذا الحدقة بين الجفنين ، مثبتة دون حركة على النشيء الذي أثار الإعجاب . ويفتح الفم أيضاً نصف فتحة ، على أن يبدو بدون تغير ، مثله في ذلك مثل بقية سلامح الوجه . » وهكذا فيما تبقى ؛ كل شيء مقدر ، مرتب ومنظم . الجبال هو العقل موضوعاً في « رويشة » . . . .

والفريق الثاني أقل عدداً ؛ الرسامون الذين لا يقنعون بلوبران كنموذج ، والمثالون الذين يسعون إلى الابتعاد عن نماذج « برنان » ليستبدلوا الظرف والجبال بالنبل والفخامة ، والمعماريون الذين يحملون ببناء مساكن جميلة يؤوى فيها المتحررون عشيقاتهم ، بدلاً من كنائس مشيدة على طراز « جيزو » ، أو قصور على طراز فرسايل : شباب يتحرقون وقد فرغ صبرهم إلى قطع كل صلة بالكبار ، بالأساتذة . ثم هواة يواجهون المحترفين ، وفي ثورتهم على التقاليد الأكاديمية ، يجترئون في المطالبة بحقهم في إعزاز ما يروق لهم : مثل روجيه دي بيل الذي يفضل رامبراندت Rembrandt وعلى الأخص روبنز Rubens على

المدرسة البولونية (١) ، ولا يتورع من إعلان ذلك دون حياء . إنه ليس ثوريا على وجه التدقيق ، بمعنى أنه لا يهاجم المذاهب السائدة مدفوعا برأى مبتسر ؛ لكنه يريد أن يكون رجلا لا ينقص من شخصيته : وهذا بحسب الظروف ، أقل من الثائر قليلا ، أو أكثر منه كثيراً . بل حتى خلوه من رأى المبتسر يشارك في إضفاء لون طريف من الحرية على أقواله . فمثلا : « إن العبقرية أول شئ يجب أن نفترضه في الرسام . هذا أمر لا يمكنه اكتسابه بالدراسة ولا بالعمل . . . » — « إن الاجازة من الضرورة بحيث لا يخلو منها فن من الفنون . إنها تخالف القواعد ، إذا التزمنا الحرفية ، أما إذا أخذنا بالروح ، فإن الاجازة تصبح قاعدة إذا استعملت استعمالا مناسباً . . . » (٢) من بين أولئك المتمردين ، يبرز الأب ديبو . لأنه يجمع بين مزايا نادرة ، فهو في الوقت نفسه رجل مجتمع وعالم ضليع : فلم يكن تردده على المجامع العلمية يقل عن تردده على دور الأوبرا . ولأنه أوتي ذهناً رقيقاً ، وقويماً معاً . ولأنه فرنسي جداً ، ومختلط . ولأنه رجل عمل ، وفيلسوف . ولأن مخالطته للوك ( وقد عرفه في لندن ، واستوثق من أسانة ترجمة بيير كوست بمراجعتها على النص الأصلي ) دفعت به صوب مصدر الحساسية الذي كشفه الانجليزي الكبير : وأدرك ديبو أن هذه الحساسية يمكنها أن تروى ظمأ المعاصرين غير المفهوم . إن الحساسية منبع الجميل ، منبع الجليل الجمال ، ومنبع الفن . وهو يأخذ على عاتقه إثبات ذلك للناس .

إن « التأملات النقدية عن الشعر والرسم » تعج بالأفكار ؛ لقد أجرى الأب ديبو كثيراً من التجارب ، وشهد كثيراً من اللوحات ، وحضر كثيراً من الكوميديات والتراجيديات والأوبرات ؛ إنه يهوى المحادثة ، المحادثة التي لا تقنع بالكلمات بل تعمل على إذكاء التفكير ؛ وهو لبق كل اللباقة ولو لم يملك الحقيقة تماما ، حتى إن كتابه ليعطيك تأثيراً عن ثروة لا ينضب لها معين .

(١) المدرسة البولونية . نسبة إلى مدينة بولونيا بإيطاليا ، مقر مدرسة مشهور في عصر النهضة . ورايمبراندت رسام هولندي شهير من أهل ليون ، يعد من أكبر عباقرة الرسم ، وروبنز رسام شهير من أهل الفلاندر ومن روائعه « صلب القديس بطرس ، وصورة هيلين (١٥٧٧-١٦٤٠) . [الترجمان]

(٢) مختصر عن حياة الرسامين ، ١٦٩٩ .

إنه يريد أن يدخل عليه شيئاً من التوازن ، ويقسمه إلى أجزاء : إلا أن بعضها قصير وبعضها طويل ، والشروح تقف أو تستطيل على هواها ؛ والموضوعات تختتم بعد أن تتناول ، أو تتكرر كيفما تشاء : هذا ليس بالتأليف الكلاسيكي العظيم على الإطلاق ، بل إنه من نوع « روح القوانين » وإن كان أقل منه تألقاً . إن الحساسية التي تتحرر بكل مشقة من روح التحليل ، تنبدي بفضل عناية ذكاء رقيق ، يستعين بالمثل والواقع .

أي نفوذ « للمؤثر » على النفوس ! أليس عجيبياً أن نرى الشعر والرسم يشيران فينا إعجاباً أكثر لو نجحا في أن يجزنا قلوبنا ؟ إذا وجدنا في بهو عرض ، فإن اللوحة التي تمثل التضحية البشعة بابنه « يفتاح » (١) تستبقينا أطول من اللوحات المرحية وتعريتنا أكثر منها . إن قصيدة موضوعها الأساسي وفاة أميرة فتية ، تدخل في برنامج إحدى الحفلات ، وهذه الفاجعة تفتن جماعة لم تجتمع إلا بقصد التسلية . « أبيع لنفسي أن أوضح هذا الواقع الغريب ، وأن أشرح مصادر المتعة التي تفيئها علينا الأشعار واللوحات . . . »

الواقع : أن أعدى أعداء الناس السأم . وهم يتخلصون منه إما بالاحساس وإما بالتأمل . إلا أن الوسيلة الأولى أقسى ؛ إن العاطفة تتملكنا تمام الاستلاك . وإن الانفعال الذي تثيره فينا ليبلغ من الحيوية أن كل حالة نفسية أخرى لتبدو بازائه محموداً . إلا أن العواطف الحقيقية لها عواقب خطيرة ، لها بتجارب أليمة . فإذا نحن فاعلون إذن ؟ نحن نقلد الموضوعات التي قد تبث فينا العواطف الحقيقية . تلك مهمة الفن . « إن الرسم والشعر يبعثان بنا هذه العواطف الصناعية ، بتقديمهما لنا تقليدياً للموضوعات القادرة على أن تبعث فينا العواطف الحقيقية . »

إذن ، فالصبيغة المتفق عليها عموماً : الفن يساوي العقل ، لا قيمة لها . الفن يساوي العاطفة ؛ عاطفة مصفاة ، لكن ممثلة في كل قوتها . ودرجة القوة العاطفية هذه ، تفسر تدرج الأنواع : فالتراجيديا تؤثر فينا أكثر مما تؤثر الكوميديا ؛ « كل نوع يؤثر فينا بقدر ما يستطيع الموضوع - الذي من جوهره

[ (١) قصة يفتاح الحلباوى وابنته (العهد القديم ، قضاة ، الاصحاح الحادى عشر) .  
[الترجمان]

أن يصوره ويقالده - أن يؤثر فينا . لذلك يجتذبنا النوع الرثائي والنوع الرعائي أكثر مما يجتذبنا النوع المسرحي . « ورويداً رويداً يتجدد كل شيء ، سواء في التأليف أو في التند ، مادام الأسر لا يتعلق إلا بتصوير العواطف بصورة فعالة ، ومعرفة ما إذا كانت قد صورت بهذه الصورة أو لم تصور . إن الأب ديهو سوف يذهب في بحثه عن سر الفن ، حتى أعرق أغوار كياننا ، حتى الاحساس ، القيمة الأولى : إن القيم الفكرية لا تظهر بالنسبة إليها إلا شاحبة ، هزيلة ، صناعية . إنه يقول « أعتقد أن نفوذ الرسم على الناس لأبلغ من نفوذ الشعر ، وقوام اعتقادي هذا سببان . أولها أن الرسم يؤثر علينا عن طريق حاسة البصر . والثاني أن الرسم لا يستعمل علامات اصطناعية كما يفعل الشعر ، بل علامات طبيعية . وبالعلامات الطبيعية يؤدي الرسم تقليده . « إن المتعة التي يفيئها الأسلوب حسية . والمتعة التي تفيئها موسيقا الشعر هي الأخرى حسية . وما أبعد العبقرية عن أن تكون سوهبة ضعيفة نحاول عبثاً أن تقويها بالتقليد ، والتدريب ، بل هي سوهبة طبيعية ، قوة بادائية ، لا شيء يعوقها ، تعلو على القواعد والقوانين . وما من ريب في أنها قوة فيزيقية : « هذه العبقرية شعلة إلهية ، حمية ، لها بلا ريب أسباب فيزيقية ، سزية خاصة في الدم ، مضافة إلى استعداد حسن في الأعضاء . « وسنعرف ذلك فيما بعد ، عندما نكتسب هذه الشروح الفيزيقية ، غير الكاملة اليوم ، الضمان الكافي . ولكن ، يمكننا أن نتساءل من الآن عما إذا لم يكن للأسباب الفيزيقية نصيب في التقدم العجيب للأدب والفنون ؟ عما إذا كانت الشمس ، والهواء ، والجو لا تؤثر على إنتاج الرسامين والشعراء ؟ عما إذا كانت هذه القوات لا تؤثر على الآلة البشرية بأسرها ؟ إن صفات ذهننا وميولنا تتوقف كثيراً على خصائص دمنا ؛ وهذه الخصائص تنوقف على الهواء الذي نستنشقه ، وعلى الأخص في فترة تكويننا ، فترة طفولتنا : ذلك هو بلا ريب السبب في أن الشعوب التي تعيش في أجواء مختلفة ، تختلف ذهنها ، كما تختلف ميولها . . .

إن ديهو يقف عند هذه النقطة . أي مرحلة قطعناها ! أي علامة ساذجة على ثورة مزدوجة ، ضد الطريقة الأكاديمية الدجماطيقية ، وضد التجرد العقلي من جهة أخرى ! حينما سطر الأب ديهو أفكاره ، لم تكن كلمة « استطبيقا » قد اخترعت بعد . إنها لن تظهر إلا في عام ١٧٣٥ ، في رسالة دكتوراة لشاب

ألماني ، اسكندر أمييديه بوجارتن . ومع ذلك نجد في « التأسلات النقدية » محاولة استطبيقية تستند على الشعور . الألوان والأصوات ، الأرض والمياه والسماء ، كل مانرى ، ونسمع ، ونلمس ، كل ما يتصل بحياتنا الحسية ، كل ما في دخیلتنا ، من عاطفية ، وحيوانية ، ومادية على وجه التقريب - كل هذه تحتاج على نسيان العقل الخالص لها وازدرائه إياها .

### مبتاڤيزيقا الجوهر

في فلسفة ليبنتز ، نستطيع أن نجد مطالبة أخرى : مطالبة بمبتاڤيزيقا تستند على قيمة اللامتناهي في الصغر ، مالا يرى ، مالا يدرك ، الغامض ؛ على قدرة « الديناميكية » النفسية ؛ على وجود جواهر بسيطة هي بمثابة ماهية الغريزة الحيوية ، ماهية « الإنية » .

لم يكن ليبنتز ليقبل أن يكون للهندسة التفسير النهائي للأشياء . وكان يكن لديكارت إعجابا خالصاً ، لكن مع نفور أخذ يتكشف من كتاب إلى كتاب ، إلى أن كتب أخيراً وصيته الفلسفية « المونادولوجيا » *Monadologie* في عام ١٧١٤ ، قبل وفاته بسنتين . ولم تنشر مباشرة ؛ إذ أخفاها الأمير « أوجين دي سافوا » في صندوق صغير ؛ ولم يطلع عليها إلا بعض العلماء الاختصاصيين : كنز مخفي . . . وسوف يأتي اليوم الذي تخرج فيه الرسائل والأبحاث من ثنايا الظلام ، حيث يفتح الصندوق الصغير ، وحيث يؤثر الجوهر الروحي الذي يتضمنه تأثير الخميرة .

كان يأخذ على ديكارت إغفاله للعناصر الهامة ، بما اقترفه من خلط بين الامتداد والجوهر ، بين الحركة والقوة الحية . ووضوحه البادي الذي يرجع إلى أسلوبه في البت في كل شيء إلى قسمين ، وإهماله للتدرج الذي يوصلنا إلى اللامتناهيات في الصغر ، وجهله بأحاسيس النفس الغامضة . لقد قال صراحة في « المونادولوجيا » إن عدم حساب الأحاسيس التي لا ندركها ، هو موضع القصور في المذهب الديكارتى : كما أنه ذكر قبل ذلك بعشر سنوات في كتابه « مقال جديد عن الإدراك الانساني » ، أنه في كل لحظة تحدث في أنفسنا تغيرات كثيرة لا نحسها ، لأنه إما أن تأثيراتنا ضعيفة جداً وعديدة ،

وإما أنها متحدة . لقد جعلتنا العادة لا نهتم لحركة طاحون أو مسقط مياه ، لو عشنا على مقربة من أيهما فترة من الزمن ؛ ومع ذلك فإن هذه الحركة تؤثر دائماً على أعضائنا . عندما نكون على الشاطئ نسمع صخب البحر : ينبغي أن نحس إذن صوت كل قطرة في كل موجة ؛ ومع ذلك نحن لا نحسها . إن ديكارت لم يلاحظ هذه الأحاسيس غير المحسوسة ، التي هي أساس الحياة السيكولوجية . « نحن مضطرون إلى الاعتراف بأن الاحساس Perception وما يتعلق به ، لا يمكن شرحه بالأسباب الميكانيكية ، أي بالصور والحركات . ولو افترضنا أن في الاحساس آلة ، تجعلنا عدتها نفكر ، ونشعر ، ونحس ؛ لاستطعنا أن نتخيلها تكبر محتفظة بنفس النسب ، بحيث يمكننا أن ندخل فيها كما ندخل في طاحون . أما وقد افترضنا ذلك ، فلن نجد في داخل هذه الآلة عند زيارتنا لها ، إلا قطعاً تدفع كل منها الأخرى ، ولن نجد فيها أى شئ يشرح لنا الاحساس . وهكذا ينبغي أن نبحث عنه في الجوهر البسيط ، لا في المركب ولا في الآلة... » هذا الجوهر البسيط هو « الجوهر الفرد » La Monade ، الذرة الحقيقية للطبيعة ، عنصر الأشياء . وما يسترعى النظر في طريقة شرح ليبنتز لخصائص هذا الجوهر الفرد — الذى يأخذ التفسير المبدئى للحياة من الفيزيقا وينسبه إلى الميتافيزيقا — هو الدفاع عن قوة نفسية فردية وجماعية ؛ فبينما يعمل سبينوزا على تحويل الخاص إلى الشامل ، ينشد ليبنتز توافقاً يمثل فيه الشامل دون أن يفقد الخاص حقوقه . لا يمكن أن يتغير الجوهر الفرد في صميمه بفعل مخلوق آخر ؛ وليس به منفذ يتيح لأى شئ أن يدخل فيه أو يخرج منه . ولكل جوهر فرد خصائصه النوعية بالنسبة إلى ما يجاوره من جواهر فردية ، إذ لا يوجد في الطبيعة أبداً كائنان متماثلان . والجوهر الفرد قابل للتغير مثل كل مخلوق ؛ ولكن نفس هذا التغير يتوقف على مبدأ داخلي ولا يأتي من الخارج . إن صفة الجوهر الفرد هذه ، من البروز بحيث تنجم عنها مشكلة : مادام الجوهر الفرد جوهرأ بسيطاً ، ومادام لا يتضمن شيئاً إلا ما يأتيه من دخيلته ، ألا يكون هذا حكماً عليه بالعزلة؟ — كلا ؛ بفضل « الاتساق المقدر » :

(١) Harmonie préétablie .

(١) كل شئ في الطبيعة يفسر بضرورة فيزيقية ، نعرض لنا في شكل يشغل امتداداً ، لكن لا تستمد مبدأها من شكل يشغل امتداداً . إن المادة الملموسة تفترض روحاً ، =

أما كيف يضع ليبنتز هذا التوافق العجيب ، فهذا ما ليس علينا أن نعيده هنا ، لأن تاريخ الفلسفة كله يشرحه أكثر مما نستطيع أن نفعل . ولكن في متناولنا من الآن ما نحتاج إليه لبرهاننا — ما وراء الشعور : L'inconscient — القيمة الجوهرية للذهن : « كل ذهن بما أنه بمثابة عالم منعزل ، مكتف بنفسه ، مستقل عن كل مخلوق آخر ، مشتمل على اللامتناهي ، معبر عن الكون ، فهو دائم ، باق ، مطلق ، كعالم المخلوقات . » — تصوير شاعري لتكاثر الحياة :

« قد يكون كل جزء من المادة بمثابة بستان عامر بالنبات ، وبمثلة بركة عاسرة بالأسمك . ولكن كل فنن في النبات ، وكل عضو في الحيوان ، وكل قطرة من أخلاطه ، هي أيضاً بستان مثل ذلك البستان ، بركة مثل تلك البركة . وبالرغم من أن الأرض والهواء المحجوزين بين نباتات البستان ، أو المياه المحجوزة بين أسماك البركة ، ليست نباتات ولا سمكا : فهي مع ذلك تحتوي نباتات وسمكا ، ولكنها غالباً من نوع دقيق جداً يستعصى علينا إدراكه . وهكذا ، ليس في الكون شيء بائر ، مجذب ، أو مهيت ، لا خواء ولا اختباط إلا في الظاهر . . . ( ١ ) »

تحقق بمجهودها الوحدة الحقيقية للجوهر . هذه الروح أو الجوهر الفرد ليست بـ كالأذرة — التي تقبل التقسيم دائماً مادامت تشغل امتداداً — : ولكنها ليست مجردة كنقطة رياضية مماثلة لغيرها من النقط . إنها تفترق عن غيرها بمقتضى صفتها ، وتأتي وحدتها بأكملها من نشاطها الموجه . . .

فلنفترض فكرة تأثير متبادل مباشر بين بعض الجواهر وبعض الكون . من المحقق أن حالة كل جزء من المادة تعبر عن الكون ، أي تتحول بمقتضى تحولات كل عناصر الدنيا : فالقدح الذي أسمى يعبر بصلابته ولونه وكل خصائصه ، عن المسافة الحالية بين الشمس « وكاب الجبار » ، وعن كل مصادر القوة التي يمكن أن يكون لها مفعول حالي عليه . ولكن لو فرضنا أن الحركة ليست « متعدية » ، لو أنكنا أن الامتداد له قدرة على النقل أو التوصيل — لأن صورته ثابتة جامدة لا حياة فيها — فأننا لاندرك هذا التأثير المتبادل بين الجواهر إلا بصورة غير مباشرة ، بوساطة قدرة خارقة للطبيعة ، وعن طريق عدد لا متناه من الحركات الانبعاثية المنتظم بعضها على بعض . إن ظواهر التأثيرات المتبادلة قائمة : وهي محل دراسة العلم . هذا التصور عن الصلات بين الجواهر هو ما يسميه ليبنتز « الاتساق المقدر » . ( مقتطف من مقدمة لـ پرینان ، في « مختارات مصنفات ليبنتز » )

[ المترجمان ] . Leibniz, Œuvres Choies, Garnier, Préface de L. Prenant

وأخيراً تؤكد اتساق سام ، اتساق يدخلنا ، وقد افتننا به ، في مجال الحب الصافي .

## العلم الجدير

نابولي . الشمس ؛ بهجة الحياة . صيحات ، وضوء . وفي الأزقة المنعطفة ، أكثر جواهر الدنيا حركة . حيوية ، وحب استطلاع منقطع النظير ؛ حركة تثقيف واسعة . محادثات حاسية ، اجتماعات ، ندوات ، حيث رجال يحملون بكل خفة أثقال معرفة هائلة ، يثيرون كل المسائل العلمية والفلسفية ، ويمحضون كل المذاهب ، ويجمعون كل الوقائع . في نابولي التي تستقبل — لأنها تستدعي — رسائل الفكر الأوربي ، وتعرف كيف توفق بينها وبين عبقريتها ؛ في نابولي المبتدعة والمليئة بالضوء ، والتي تبدو هنا كرمز للقوة والحيوية ، ولد في ٢٣ يونيو ١٦٦٨ جياسباتستا فيكو .

لقد عرف ذهنه كل أنواع الاجبار ، وعرف كيف يتخلص منها جميعاً . عرف كيف يتفادى خطر أن يكون طفلاً إعجازياً ؛ أن يكون تلميذاً صنوعاً لأساتذته ، لا يقسم إلا بأقوالهم ؛ أن يكون أسيراً لاحدى المهن ؛ بل حتى أن يكون سعيداً ، وهو أخطر ما يهدد من يروم التفكير . قرأ أرسطو ، وجميع الاغريق ، والقديس أوغسطين ، والقديس توما ، غاسندي ولوك ، ديكارت وسبينوزا ، البرانش وليبنتز ، دون أن يصبح عبداً لأحد ، قائماً باختيار أربعة نماذج : إفلاطون ؛ تاسيت ؛ باكون ، الذى رأى « أن العلوم الانسانية والالهية فى ميسس الحاجة لأن تصل فى أبحاثها إلى مدى أبعد ، وأن القليل من المكتشفات التى توصلت إليها مازال فى حاجة إلى تصحيح » ؛ وجروسيوس ، الذى « جمع كل الفلسفة فى نظرية قانونية شاملة ، والذى أقام لاهوته على تاريخ الوقائع خيالية كانت أو محققة ، وعلى تاريخ اللغات الثلاث : العبرية ، واليونانية ، واللاتينية ، وهى وحدها اللغات القديمة العليمة ، التى أوصلتها إلينا الديانة المسيحية . . . » . ولكن مهما بلغ تأثير هؤلاء العباقرة عليه ، فان ذلك لا يمنعه من مراجعة مبادئ معرفتهم من أساسها . إن فيكو قد بقى هو نفسه ، بصورة ألية ورائعة .

إنه يملك نوعى الذكاء ، النوع الذى يفهم ، والنوع الذى يخلق . إن حميته تجعله يجيد عن الطرق التى اختطها بنفسه ؛ وهو يكثر من المجاز ، ومن الخيال ؛ ينحو نحو التحليل ثم على حين غرة يعمل بوحى من حدس فائق . وهو يقيم براهينه وفقاً لأسلم قواعد المنطق ؛ ثم يتعجل فيتعدى إثباته ، بسبب طبيعة ذهنه أكثر مما هو بسبب سعة الموضوع الذى يتناوله . وهو عنيد فتراه يكرر ويعيد ، ضيق الصدر فتراه يسرع ، إذ يعرض لنا النتائج بينما هو لم ينته بعد من المبادئ الأولى ؛ إنه مفتون بالجديد ، بالجريء ، بالغريب ، بالصحيح ، الذى يزيح عنه أكوام الأخطاء ثم يذيعه على العالم ، هو ، جياसानستا فيكو . لا يعرف الاتزان الكلاسيكى ؛ وهو بفورته ، وعصبيته ، بل هوسه أيضاً ، يمثل الرجل المتبرم غير الراضى : فهو أبداً لم يثبت الاثبات الكافى ، أو يصحح نصوصه ، أو يحدد تفكيره ، أو يفرض على القراء اكتشافاته العجيبة . إنه متصلب الرأى ، صعب المراس ، غير ودود ؛ وهو متعاطف ، غضوب ؛ يشعر بتفوق عبقرية لا يعترف به معاصروه ، الذين لا يفهمونه ، ولذا فهو يتألم أشد الألم . عندئذ يضاعف مجهوده لاقتناعهم ؛ ويشرع فى كفاح ضدهم ، وضد نفسه . لا بد من أن ينتهى بإشراكهم فى سره العظيم ، سر « العلم الجديد » . والحق أنه سيكون جديداً ؛ أولاً بالقدرة التى يؤثر أن يستعملها ، وهى الخيال الخالق . إن للنقد دوره وفائدته بلا مرأى ، غير أنه لا يتفق تمام الاتفاق مع المغزى العميق للحياة : التى ليست مجرداً ، بل خلقاً متصلاً . — وسيكون جديداً بمنهجه ، المنهج الذى يرفضه الناس من حوله ، المنهج التاريخى . غير أن التاريخ ليس عبارة عن روايات المؤرخين ؛ بل هو يطالع فى كل الآثار التى خلفتها الانسانية من تلقاء نفسها على طول طريقها : الشعر البدائى ، اللغة ، القانون ، والأنظمة ؛ كل ما كان كيفية لكيانها . — وسيكون أيضاً جديداً بحركته : لأنه يسير مخالفاً مجرى العصور ، ويبحث عن الحقيقة لا فى أقاصى المستقبل البعيد بل فى مصادر الجنس البشرى . وسيكون جديداً فى ماهيته . إنه معرفة الصيرورة الجماعية ، معرفة الكائن الذى يخلق نفسه ويعرف نفسه فى الوقت ذاته ، ويجد ضمان يقينه فى الماثلة بين الفاعل والمفعول : العلم ، هو خلق الانسانية بالانسانية ، المسجلة أيضاً بالانسانية . « من وسط هذا الليل العميق البهيم ، الذى يغلف الزمن القديم ، الذى نبعد عنه أيما بعد ، يلوح

لنا نور أبدي ليس له غروب ، حقيقة لا يمكن أن تساورنا فيها شكوك : لا ريب في أن هذه الدنيا المادية من فعل الناس . إذن من المحتمل ، لأن هذا مفيد ولازم ، أن نجد مبادئها في تبدلات ذهننا . »

\* \* \*

أيها المسكين ، أيها العظيم فيكو ! إن الناس لم يفهموه ، إنهم لم يكادوا يعبرونه أسماعهم ، كانت أفكاره بالغة الجودة ، تختلف كثيراً عن الأفكار التي قبلها الناس من حوله . كان الآخرون يمجدون النظرى ، العقلى ؛ ينجلون من ماضٍ يبدو لهم مثار فضيحة لمدينتهم النقدية ؛ يرون التاريخ كذبا والشعر تمويها ، يطرحون الحساسية ، تلك المريضة ؛ والخيال ، ذلك المجنون . أما هو فيرفض — بعناد العبقرية — أن يعد جسم الانسانية قطعة تشريحية ، ويصر على البحث في اختلاج الحياة من جديد . إنه يستعين بالفقه ، والفيلولوجيا ، والصور ، والرسوز ، والأفاصيص ، حتى تتوطد بينه وبين الماضى رويداً رويداً أواصر الألفة ، فيصل إلى أغوار الهوات السحيقة ، ليكشف تاريخ تطورنا والصورة المثالية لذهننا ، معاً .

ولم يقبل الناس الغصن الذهبي الذي أتى به . لذلك يمكننا أن نسمع في « العلم الجديد » *Scienza Nuova* ( ١ ) صيحة نفس ساخطة . إن الانفعال يحاول أن يرفع الجمل المشحونة بالتفكير ، ليساعدها على سهولة التحليق ؛ ويسعى فيكو — طامعاً في إثبات كل شىء في آن واحد ، خاشياً من أنه لم يقل الكفاية أبداً ، مستعجلاً ، لاهتاً ، ثقيلًا — في أن يقدم لمعاصريه المؤلف العظيم الذي يقابلونه بعدم اكتراث . علينا أن ننتظر ثلاثة أرباع قرن ، قبل أن يلقي هذا الكتاب الرائع شعاعه الساطع على الأفق الأوربي .

( ١ ) مبادئ علم جديد ، ( الطبعة الأولى ، ١٧٢٥ ، الثانية في ١٧٣٠ ) .

*Principii di una Scienza Nuova intorno alla commune natura delle nazioni* ( Première édition, 1725 : *Prima Scienza Nuova*. Deuxième édition, 1730 : *Seconda Scienza Nuova* ).

## الفصل السادس

### الحمية الدينية

كل هذه الأبراج التي تشرف على الأرياف ، وكل هذه الكاتدرائيات التي تتزاحم حولها البيوت في المدن ، متوسلة إليها أن تتسامق نحو السماء . الشعاع الذهبي للشموع التي تحرق أمام الهياكل ، صوت القسيس وجوقة المؤمنين ، دستور الايمان المسيحي ، وأنشودة العذراء ، رنين الأجراس ، وعبق البخور . الكنائس العديدة ، والمعابد ، والمساجد ، وكل مكان يجتمع فيه الناس ليعترفوا بالسر الذي يحيط بولادتهم ، وحياتهم ، وموتهم ، وليعهدوا إلى الله بالتفسير الأسمى الذي لا يستطيع عقلهم وحده أن يتوصل إليه . . . . إن الضرورة الدينية تدافع عن أديتها .

\* \* \*

نحو ذلك الوقت ، استشعر المؤمنون تهديد جهود المفكرين الأحرار ، والكفار لهم ؛ وأشارت جمهرة من علماء الدين إلى الخطر المستفحل . وإذا كان بعضهم قد قبل - دون تردد - الكفاح في الميدان العقلي ، فقد أخذ البعض الآخر ينيشد أسلحة أخرى . كانت الذئاب الضارية تتكاثر حول القطيع ، فلم يكن بد من خضد شوكة هجومهم بوسائل دفاعية جديدة : فلنرد على الكفر الصريح بتقوى أشد حيوية ! لن يظفر العدو بمن يسمرون ويتعمدون .

« هذا القرن الجليل الذي يمكن أن ندعوه عصر الفكر ، أو عصر الحب الخالص . . . » هكذا كان يعبر هنري بريموند في دراسته للحياة المسيحية في ظل « النظام القديم » ؛ وكان يبين أن تقدم المذهب الديكارتي ، لم يوهن في النفوس التقية ، لا حيوية تقبل حقائق الايمان الأساسية ، ولا مزاولة العبادة . وإني لأود أن أحجز واحداً من كتب الصلوات التي يذكرها دعماً

لأقواله ، واحداً بريئاً وجميلاً ، « ساعة لعبادة القربان المقدس الدائمة » ،  
 المؤرخ عام ١٦٧٤ . هذه الساعة المقدسة تسجل أوقات الأخطار الداهية ؛  
 يستطيع المؤمنون أن يتخيلوا ، باستماعهم إلى دقائقها ، هجوم الأعداء الذين  
 يهدفون إلى تدسير الايمان بقيادة إبليس ؛ كل ساعة تستدعى خيالاً يثير الرعدة .  
 منتصف الليل : يخرج أسراء الظلام من كهوفهم ، في الليل البهيم — وهو  
 الشطر الرئيسي من مملكتهم — ، دون أن يفارقهم العذاب والنيران التي  
 يحملونها في كل مكان ، ويطيرون فوق الأرض لجمع معاوينهم الأشرار . . .  
 الساعة الخامسة صباحاً : يلقي « بالخبز المقدس » إلى الكلاب . . . ولكن  
 كل إهانة يقابلها دعاء معوض ؛ وتوقظ دقائق هذه الساعة الرهيبة « غريزة  
 جديدة » ، « حمية خفية » ، لم يكن هناك داع لظهورها في هدوء الأيام  
 الخالية من الكفاح .

حياة حساسة تزداد نمواً ؛ لعل هذه هي النقطة الأساسية هنا ؛ هنا تسجل  
 مبادئ علم الدفاع عن الدين المسيحي — وإن كان لا يزال على شيء من  
 الغموض — الذي يستغرق قرناً بأكمله قبل أن يتقوى . أنوار المعرفة ، حسناً :  
 ما من كنيسة عدوة للنور . العقل ، حسناً : ما من كنيسة تزعم أنها في غنى  
 عن مشاركة العقل . ومع ذلك ، ودون حساب لصور الكفر الصريح المتطرفة ،  
 وإذا لم نعتد إلا بالتبدلات التي تعتمل في متوسط الضمائر ، — فقد فقد الدين  
 عون قوة ذهنية تريد الانفصال عن الايمان ، والاستغناء عنه ، وتشكيل مثل  
 إنسانى أعلى من دونه . « لاشك في أن عصرنا عليم مستنير . لقد حققنا تقدماً  
 كبيراً في العلوم وفي الفنون ، سواء لأننا هيأنا لها مبادئ أفضل ، أو لأننا  
 وضعنا لها أدلة وبراهين أقوى . كم من مكتشفات حديثة ، كم من تجارب  
 جديدة ، وضعناها في وضوح النهار ، لنساعد الذهن على التغلغل إلى ما وراء  
 تلك الحدود التي كانت بربرية العصور السالفة تحتجز عندها أنوار المعرفة! — ومع  
 ذلك يحق لنا أن نشك فيما إذا كان الدين قد لقي فائدة كبيرة من كل تلك الأبحاث  
 الجميلة ؛ وفيما إذا لم يكن قد خسر أكثر مما كسب . . . (١) » يمكنه أن يعوض  
 ما فقد ، إذا طلب العون في قوات نفسية أخرى ، مما يحتقرها خصومه أو ينكرونها .

(١) اسحق چاكو ، بحث في وجود الله ، لاهاي ١٦٩٧ ، مقدمة .

إن البراهين الميتافيزيقية على وجود الله ، أفضل البراهين بلا سراء ؛ ولكنها ليست في متناول « العاديين من الناس ، الذين يمتثلون لخيالهم . » أما بالالتجاء إلى خيالهم وحساسيتهم ، فيستطيع عالم الدين المسيحي أن يقنعهم بوجود الله . أفلا تثبت آيات الطبيعة وجوده ، وعظمته ، وطيبته ؟ حجة ليست جديدة ، ولكنها تكتسب قيمة جديدة لو أعطيناها لونا خاصا ، لو انقلب البرهان إلى اندفاق عاطفي . عندئذ ندخل في حالة من الاعجاب تفسر كل شيء في حالة شاعرية لا يقاومها شيء . أنظر إلى الغابة : « في الصيف تحمينا هذه الغصون بظلالها من أشعة الشمس ؛ وفي الشتاء تغذي الشعلة التي تحفظ فينا الحرارة الطبيعية . وليس خشبها مفيداً للوقود فحسب ؛ بل هو سادة رقيقة طيبة ، بالرغم من صلابتها وستانتها ، تستطيع يد الانسان أن تعطيها دون عناء ، الشكل الذي يشاء ، لأكبر الأعمال المعمارية والملاحية . وفوق ذلك ، فإن أشجار الفاكهة ، بميل فروعها نحو الأرض ، تبدو كأنما تقدم للانسان ثمارها . . . » — أنظر إلى المياه : « لو أن الماء كان أقل كثافة لأصبح نوعا من الهواء ، ولأصبح كل ما على وجه البسيطة جافا مجدبا ؛ ولما وجد إلا حيوان طائر ؛ ولما استطاع أى نوع من الحيوان أن يسبح ، ولا أى نوع من السمك أن يعيش ، ولما وجدت أى تجارة للملاحة . لو أن الماء كان أقل كثافة ، لما استطاع أن يحتمل تلك العماثر العائمة الهائلة التي نسميها سفنا ؛ ولغاصت أقل الأجسام وزنا في الماء . . . » انظر إلى الأجواء وإلى النار ؛ انظر إلى الأفلاك ، وإلى هذا الفجر الذي « لم يقصر مرة واحدة منذ آلاف السنين عن أن يبشر بالنهار ، يبدؤه في وقت معين ، في لحظة محددة ومكان محدد . » انظر إلى الحيوان : « فقد أوتي الفيل خرطوما ، لأنه لو كانت رقبتة في مثل طول رقبة الجمل لكانت تنقل عليه كثيراً نظراً لضخامتها . . . (١) »

قليلاً من الوقت ، وسيأتي نيوفنتجت Nieuwentijt ، وسيأتي الأب بلوش Pluche اللذان سوف يثبتان وجود الله بآيات الطبيعة أمام جمهور واسع ؛ ومن بعدهما برنردان دي سان بيير ، ثم شاتو برياند .

(١) فيلون ، إثبات وجود الله ، مستمداً من معرفة الطبيعة ، ١٧١٣ .



عند هذه النقطة من طريقنا ، وعلى عتبة آخر ملاذ ، حيث يتحمس رجل الشعور ، فلنذكر « جو تفريد أرنولد » ، حاملا في يده كتابه « تاريخ مقسط للكنيسة والاحاد » . إنه يقول لنا إنه تاريخ مقسط لأن الذى كتبه رجل لا ينتمى إلى مذهب من المذاهب ، ويستعمل المنهج التاريخى لا اللاهوتى . وإنه عام ، لأنه لا يقبل أن توجد كنيسة واحدة ، وإنه سيتكلم عن كل الكنائس التى تبشر بالايمان بالله وبالسيد المسيح . وإن كتابه يريد على الأخص أن يكون تاريخا مجيدا للاحاد .

والواقع أننا إذا صدقنا قوله ، نخطئ في شأن الملحدين ، الذين لا يفهمهم الناس ويفترون عليهم . الملحدون ، اسم يطلقه أصحاب المصالح على من يضررون بمنافعهم ونفوذهم . إن أصحاب المصالح يباهون بأنهم أرثوذكس : إلا أن الأرثوذكسية ليست الايمان . قبول العقائد والصيغ بدون تمحيص ، والخضوع للسلطات ، وعد الايمان عملا فعلا opus operatum : تلك هى الأرثوذكسية ، التى ليست فى الواقع إلا « عقلية » فارغة ، تجهل التجارب الدينية ، واليقظة والبعث .

إن الملحدين الحقيقيين ليسوا أولئك الذين يخاطرون بأن يخطئوا ، مع سلامة نيتهم ؛ بل هم على النقيض أولئك الذين يعيدشون كالثوثيين ، رافضين الخضوع لنفوذ الله ؛ أى الأنايون ، والدجماطيقيون ، وغير المتسامحين . . . هكذا يتكلم فى عام ١٦٩٩ جوتفريد أرنولد ، العالم ، المتمرد ، المتصوف : أولئك الذين نعدهم عادة ملحدين ، هم المسيحيون الحقيقيون ، أتباع المسيح ، الذين يطهرهم الألم ، وتزكيتهم المحبة ؛ وأولئك الذين نسميهم الأرثوذكس ، ذوو القلوب الجافة المجذبة ، هم الملحدون .



فلندخل الآن تحت قيادته ، إلى دائرة النفوس الغيورة . فى عام ١٧٠٩ ، طردت آخر الراهبات اللواتى كن لا يزلن مقيمات ببور-رويال ، وفى عام ١٧١٢ دمر هذا الدير . وسيقضى على مذهب جانسينيوس

قضاء مبرما ؛ إن المذهب الذي أزعج كنيسة فرنسا منذ سنوات عديدة سيغلب أخيراً على أمره : *ubi solitudinem faciunt, pacem appellant* أيما حولوا إلى خراب قالوا إنهم أتوا بالسلام (١) . - لكن لا ، فإن هذا المذهب ينتشر في الخارج ، ويكسب أشياعاً شيئاً فشيئاً ، وتبقى له مراكز في لوفان ؛ وفي أترخت حيث تؤوى كنيسة عنيدة المنفيين والمبعدين ؛ وفي مدن مختلفة في ألمانيا ؛ وفي فينا حتى في البلاط الامبراطوري ؛ وفي بيمونت ولبارديا ، وليجوريا ، وتوسكانيا وحتى في روما ؛ ويقوم أتباع جانسينيوس بدعاوة واسعة في إسبانيا . وفي فرنسا تجدد العراك ، عنيفاً كأول يوم ، على إثر إعلان القرار البابوي *Bulle Unigenitus* (٢) في عام ١٧١٣ . إذ ينشر كينيل القسيس بالأوراتوار كتاباً عن « الأخلاق الانجيلية » ؛ ويحرم البابا سائة قول وواحد من هذا الكتاب ؛ وكأبما كان ذلك إيذاناً بمعاودة القتال ؛ فأخذ المعارضون ، والمؤيدون ، والمؤثقون يتجادلون ، وسوف يتجادلون خلال سنين طوال . وسيظهر عن قريب المتعصبون المشنجون *Les convulsionnaires* (٣) - وسوف تحدث معجزات ، في أثناء المواكب الاحتفالية ، وعلى مقابر القديسين ؛ وفي هذه المرة ستبلغ الاضطرابات مبلغ الفضيحة . وإذا كان لمذهب جانسينيوس عنصران أحدهما لاهوتي والثاني أخلاقي ، فإن الأول سوف يضعف مع مر الزمن ، بينما يزداد الثاني قوة . إن الحسرة والقلق النفساني ، والاسترابة في شأن السلام ، وذكرى الاضطهاد الأليمة ، والايان بالآيات المنتقمة ، لا تتبدد بارادة الملك ولا بقرارات روما . لم تعد الجانسينية مذهباً ، بل أصبحت على مر الزمن روحاً ، روحاً عنيفاً صارماً ، يسرى في مواجهة سريان التهوين في العقيدة والأخلاق . وكان البروتستانت السفينيون *Camisards* (٤) ، الذين يتعقبهم البوليس

- (١) كلمة للشاعر تاسيت في « حياة أجريكولا » على لسان جالجاكوس البطل الكلداني .  
تطلق على الغزاة الذين يبررون ما يسببون من خراب بحجة المدنية . [الترجمان] .  
(٢) قرار أعلنه البابا كليمان الحادي عشر بادانة مذهب جانسينيوس . وقام على إثره عراك عنيف بين أتباع جانسينيوس والحيزويت . [الترجمان] .  
(٣) صفة لأتباع جنسينيوس المتعصبين ، في القرن الثامن عشر ، الذين كانوا يقعون في تشنج عصبى لفرط حماسهم الدينية . [الترجمان] .  
(٤) كاميسار : لقب لبروتستانت السفين الذين تسلموا عقب فسخ أمر نانت . وكانوا يرتدون صدريّة تسمى *Camiso* ومن هنا هذا اللقب . [الترجمان] .

الراذب ، ويعذبون إذا وقعوا في قبضته ، شهداء الايمان — يقعون من باب أولى في فوران عاصفي سييد ، يزداد غلواً حتى يصل إلى درجة الوهم . فلننظر إلى أحد رؤسائهم ، ابراهام مازل الذي خلف لنا مذكراته أو بمعنى آخر اعترافه . « قبل أن أتناول السلاح ببضعة أشهر ، وقبل أن تدور بخلدى أية فكرة ، حلمت أنى أرى في بستان ثيرانا ضخمة سوداء ، سمينة جداً ، ترعى في كرمب البستان . وأمرنى شخص لا أعرفه أن أطرد الثيران السود إلى خارج البستان ، فرفضت أن أفعل ، إلا أنه لما أصر وكرر أوامره أطعته وطردت الثيران . وعلى إثر ذلك نزل على الروح القدس ، وأمسكنى كالعادة مسكة رجل قوى ، ثم فتح فمى وجعلنى أقول فيما أقول إن البستان الذى رأيته يمثل الكنيسة ، وإن الثيران السود السمينة هى القسس الذين يلتمونها ، وإنى إنما استدعيت لتنفيذ هذه الرؤيا . وقد أوحى إلى أكثر من مرة أن أستعد لحمل السلاح للكفاح بجانب إخوانى المضطهدين ، وإنى سأحمل الحديد والنار ضد قسس الكنيسة الرومانية وسأحرق مذابحهم . » بالوحى ، يعتقدون اجتهادات فى الغابات ، وينزل عليهم « الروح » بصورة مرعبة حتى إن الرعدة التى تهز أجسامهم تلقى بالخوف والذعر فى قلوب من يشاهدهم . بالوحى ، يحملون السلاح ، ويسيروا ، ويهاجمون ، ويتفرقون . بالوحى ، يحرقون الأبوشيات ويقتلون الخوارنة . ولما قبض على مازل سجن فى برج كولستانس فى أيج — سورت . وقد نشر أحد أحجار البرج ، ليهرب ، و « كان يستشعر وحي الروح كما اشتغل بهذا العمل . »

ولعل حالة إيلي ماريون تحيرنا أكثر . « فى اليوم الأول من هذا العام ١٧٠٣ ، أسبغ الله على شرف زيارة روحه ، ومن أول وحي نطقت به ، قيل لى فيما قيل ، إن الله قد اختارنى منذ كنت فى بطن أمى لتجيده . » إن إيلي ماريون هو « المختار » ، البشير بعهد المسيح الحجد . فلنتذكر — دون أن نتبعه فى معاركه ، وفى هزيمته — الطريقة التى انتهجها فى معيشتة فى لندن ، حيث التجأ فى عام ١٧٠٦ . إن الأوهام تتملكه ، فيتنبأ ، وينزل عليه « روح الله » ، ويروعه ؛ وينفجر ضد ضعاف الايمان والقسس أكثر مما يرعد ضد الملحدين والكفار . وكان قبل ذلك قد فضح قسس جنيف ، الذين أبوا أن يصدقوا بقرب محبى المسيح . « إن هذا الحبى الثانى لبمثابة الشمس له

لا تستطيع عيونهم أن تحتمل شعاعها إذ يعميهم . فليحذروا أن يانبذوا كما نبذ اليهود من قبلهم ! « وفي لندن يرعد ضد القسس الفرنسيين ، ضد الانجليكان ، وضد الجميع ؛ وهكذا تبدأ قصة عجيبة أليمة . أولئك « الأنبياء » الكاسيساريون وقد طردوا من الكنائس ، وأرذلتهم الجاهير ، وقبض عليهم ، وقد سوا للمحاكمة ، وأدينوا ، يستشعرون لهباً يزداد اضطراباً على الدوام . وهم يكسبون أنصاراً من الانجليز ، لأن مرضهم معد ؛ وتغتنى جماعتهم بطائفة إنجليزية هيبستيرية . وذات يوم يعلنون أن النهاية قد أوشكت ، وأن النار سوف تلتهم « المدينة » بما فيها من كفار ؛ ولن ينجو إلا المؤمنون ؛ ولكي يتعرفهم الملك المدر ، عليهم أن يرتدوا شريطاً أخضر إما في ذراعهم وإما على رؤوسهم . وسرة أخرى يتنبأون أن اضطهاد « الأنبياء » سيتوقف قبل مرور ستة أشهر ، وتأييد حقيقة رسالتهم : وتمر الستة الأشهر دون حدث جديد . وسرة أخرى يزعمون قدرتهم على بعث الأموات . وينظر الشعب الانجليزي سندهشاً إلى أولئك المتحمسين ، أولئك المجانين ؛ ويظهر حيالهم في بادئ الأمر أمارات فروغ الصبر ، ثم عنفه البارد . وحكم على إيلي ماريون بالحنك العلني pilori ؛ وقد كتب على ورقة معلقة فوق رأسه : « إيلي ماريون ، المعترف بادعائه أنه نبي حقيقي — وهذا كذب وكفر — وبأنه نشر وأعلن كثيراً من الأقوال بدعوى أن روح الله قد أملاها عليه أو أوحى إليه بها ، بقصد إثارة الرعب في رعية الملكة . » وأخيراً سيغادر إيلي ماريون البلاد ، متبوعاً ببعض المخلصين الذين سيظلون ملتصقين به في عناد ، وستنتقل الجاعة الصغيرة من بلد إلى بلد حتى الأستانة ، حتى آسيا الصغرى ، مبشرين دائماً ، متنبئين دائماً ، مهديين دائماً ؛ نمطهدين ، مسجونين أحياناً ، ولكن حاملين في أنفسهم شعلة جنونية ، زاعمين أن يجعلوها تشتعل في كل الشعوب : إنها بريق الضوء النازل من السموات ليكشف في ليل شعوب الأرض عن الفساد الموجود في ظلماتها . . .

\*\*\*

إن قدرية سبينوزا تمثل — من وجهة نظر معينة — صلابة العقل . ومع ذلك فهناك شيء من اللذة في الاستغراق ، والذوب في « الكائن » الشامل : إنه شعور ، بل إحساس تقريباً . هذا الانضمام إلى النظام الذي يسود الدنيا ،

الذي هو الدنيا ، وهو الله ، وهو كل شيء ، يجب أن يكون واعياً وإرادياً ليكون له أثره الفعال ؛ ولكننا نستطيع بميل يسير أن ننزلق من هذه الصفة الارادية إلى إذعان سلبي ، يصبح استسلاماً . فلا عجب إذن إذا رأينا تصوفاً يتوالت من « علم الأخلاق » ، ويمتدشرف في هولندا وفي ألمانيا . — ولكننا لازلنا ، مع أولئك ، الاسبينوزيين ، على مبعدة من الدوائر الأخيرة ، أكثرها همية .

سادتنا ننعم على قسيس اللوثرين نفس الرذائل التي نعسوها على الكاثوليك ؛ ماداموا قد أضحوا عبيداً للحرفية لا للروح ؛ مادامت لا تحذوهم شفقة ولا إيمان ؛ وماداموا ينتفعون بالمال من مباشرة عبادتهم ، بل إنهم يسمحون بمشترى العقاب بالنفود ؛ ومادامت مواعظهم ، بدلا من أن تكون منابع للحقيقة وللحياة ، قد أصبحت خطباً محفوظة عن ظهر قلب ؛ مزوجة ببعض الفكاهة الشعبية ، ولا صلة لها سلفاً بعظات كلام الله : فقد تولد ، ضدهم ، وانتشر في ألمانيا ، مذهب « الخشوعية » ، دين القلب . الخشوع ، القلب ؛ هاتان الكلمتان ستترددان كثيراً بقلم ولسان الرجل الذي أناح للحساسية الألمانية ، المكبوتة منذ أمد طويل ، أن تظهر إلى وضح النهار ، « فيليب يعقوب سينر » .

كان قسيساً في فرانكفورت لما واثته فكرة تأسيس « مدارس التقوى » ، في عام ١٦٧٠ . ليس واجب القسيس أن يجادلوا ، وأن يتصايحوا ، بل هو على النقيض أن يذكوا الحياة الباطنة ؛ وعلى ذلك فقد كان يجمع في المساء ، مرتين في الأسبوع ، ذوى الارادة الطيبة لقراءة الكتاب المقدس ، والتعبء ، وليتركوا الله يؤثر في نفوسهم . وكانت هذه هي الخطوة الأولى ، وقام بالثانية لما نشر في عام ١٦٧٥ *Pia desideria, oder herzliches Verlangen nach gottgefälliger Besserung der wahren evangelischen Kirche* ( تمنيات صالحة ، أو رغبات المؤمنين القلبية لاصلاح الكنيسة الانجيلية الحقيقية ) . عندئذ اتسع نشاطه ، وشمل القسيس ، والمؤمنين ، يدعوهم إلى العودة إلى إيمان حى فعال ، إلى إيمان قوامه المحبة . في ١٦٨٦ ينتقل إلى درسدن ، ويصبح واعظاً في البلاط ، ومرشداً لمنتخب ساكس ، وعضواً في مجلس الكرادلة الأعلى ؛ وقد لا يكون لهذه الألقاب قيمة ، لو لم تسمح لنا بتقدير مدى نفوذه ونجاحه : فالطلبة والنساء يستمعون إلى كلمته المستحرة والخطيرة في نفس الوقت ؛ وتجتمع الدوائر — بوحى منه — لدراسة الكتاب المقدس ؛ وأصبحت كلمة « الخشوعي » *Piétiste*

مجيدة بعد أن كانت مرذولة . كان أوجست هرمان فرانك خشوعياً ، ولما كان عليه أن يعظ بالايمن ، وأحسن أن الايمان يعوزه ، وقع في اليأس ، وجثا ، متوسلاً إلى الله أن ينقذه من حالته التعسة : فيلهمه الله ، وتكون رسالته أن يعمل على إنارة الآخرين بدوره . والأسراء ، والنبلاء ، الذين يندشون سلاسلهم بأنفسهم خشوعيون أيضاً ، وكذلك البورجوازيون ، وعامة الشعب ؛ إن ألمانيا تنفى إلى الايمان .

وسوف تسرى العدوى على الدوام ، العدوى التقية . سيغادر سبنر Spener درسدن قاصداً برلين ، ويكسب منتخب براندبرج ، وعندما يحول هذا الأخير أكاديمية هال إلى جامعة ، في سنة ١٦٩٤ ، سيصبح سبنر موجهها ومحركها . وهكذا ترتفع قلعة « الخشوعية » ، محوطة من كل جانب بأعمال مسيحية . ماذا تمثل إذن تلك القلوب المنحمنة ، والمنتصرة هنا ؟ أولاً ، أثراً باقياً ، أثر بوهم Boehme المتصوف ، الحاضر فيهم على الدوام — ثم رفضاً ، تمرداً على الميل إلى تبلور وإلى تبريد موجة الحياة الدينية التي تنبثق في نفوسهم . — وبصورة أعمق ، فكرة أن المنهج التحليلي والبحث المنطقي لا يمثلان كل المعرفة ؛ وأن الوضوح ليس حتماً كل الحقيقة ؛ إنها تحمي الحدس ؛ إنها تحفظ إمكان المعرفة المباشرة ، إمكان الاتصال الكلي بمنبع الحياة الأبدى — الإينية Le Moi ، وفي الإينية ، قوة المقدرات العاطفية ، وهي أكثر شخصية ، وأكثر فردية من المقدرات الأخرى . — التمسك بقوام أولى Substratum ، تهدده صور التمدن الديني المعتادة في كماله وسلامته .

إن فوارق الشعور المتعددة تغنى حياتهم . إذ يستشعرون نضوب عواطفهم ، وإجدابهم ، وضياعهم ؛ ويحسون ضيق من يصبح في الصحراء بلا جدوى : هل هناك أشد إيلاماً من انتظار طويل للغفران ؟ ثم تحين ساعة الاعتراف ، والفضفضة ؛ وتلك الضربة التي تصدهم : المعجزة ، الإلهام ، الوحي المباشر . حينئذ تكون لذة حب سماوى لانهائية ، ذوب المخلوق البشرى في « الكائن » الذي يعلم ، والذي يريد ، والذي يعطى للحياة طعماً « سبقياً » من الأبدية . فما جدوى البحث من الآن فصاعداً ؟ وما فائدة الفلاسفة ؟ أو حتى اللاهوتيين ، أو حتى شراح الكتاب المقدس ، الذي يجب أن يفهم من نفسه ، ساداست كلمة الله قد سجلت فيه دون ألغاز ؟ Unum est necessarium : شئ واحد

لازم : الاتحاد بالله . . . (١) - هنا لا يزال شيء من الحركة باقيا ؛ وسوف يلغيه أنصار الركونية .

\*\*\*

كيف نفسر النزاع الذى أوقع بين أشهر أسقفين فى كنيسة فرنسا ، بوسويه وفيلون ، والذى دفعهما إلى تبادل اللوم والالتهام ؛ إلى الالتجاء إلى روما حتى حكم على أحدهما بالادانة - إلا إذا وجدنا فى هذا الجدل الكبير حالة خاصة لميل عام ؟ كان مذهب « الركونية » Quiétisme (٢) صورة من صور التصوف التى كانت تزعزع أسوار الكنائس فى كل مكان ، باسم الشعور المنطلق . أى أحلام عذبة لم يتعلل بها فيلون ؟ إنه يتأهب للرحيل ؛ اليونان مستعدة لاستقباله ، السلطان يجزع فيتراجع ؛ وكان يرى - وهذه هى ألفاظه بالضبط - الشقاق يزول ، والشرق والغرب يتحدان ، وآسيا التى تئن حتى ضفاف الفرات ، التى ترى بزوغ النهار بعد ليل طويل . أو كان يتخيل أرضاً من أراضى الأحلام ، أو « أندلسا » مثلى الجبال ، ليصفه بألفاظ كلها إعجاب : شتاؤه دافئ ، وصيفه غير محرق ، السنة بأكملها كأنها زواج سعيد بين الربيع والخريف اللذين يبدوان كأنما يشدان على أيدي بعضهما ؛ تربته من الخصوبة حتى إنها تفىء محصولاً مزدوجاً ؛ وأشجار الرمان والغار والياسمين تحف بالطرق العبقة . أو كان يبنى بيديه المدينة الخالية من العيوب ، « سالانت » (٣) :

(١) Agir en Dieu . . . يشرح بول هازار هذا التعبير بأنه يعنى « الذوب فى الله » ، أى الاتصال فى الفكر بالله . أنظر الفكر الأوروبى فى القرن الثامن عشر ، الجزء الأول ، باب « السعادة » ، ص ٢٤ . [الترجمان]

(٢) الركونية Quiétisme : مذهب تصوفى ، يرى أن الكمال المسيحى فى محبة الله ، وفى عطلة الروح عن الحركة . وكان لهذا المذهب ممثلون فى كل عصر ، وأشهر رؤسائه القسيس الاسباني مولينوس Molinos ، الذى نشر فى منتصف القرن السابع عشر كتاباً فى التصوف ، جعل فيه الدين فى صورة مثالية حتى لم يعد يفهمه العامة . وقد قبل فيلون هذا المذهب وتكلم عنه فى مؤلفاته ، وكانت حركاته هذه ولا سيما وهو أسقف « كامبرى » و« ولى العهد - سببا فى نزاع شديد بينه وبين بوسويه الذى رأى أن هذا المذهب يفقد المرء شخصيته ولا يترك له أى قوة أو إرادة ليحارب الشر . [الترجمان]

(٣) سالانت : انظر تيلياك ، الكتاب الثامن . [الترجمان]

حيث لا يؤس ولا رذيلة ؛ إن الأراضي الاسترالية لتكاد تستطيع أن تقدم لأبناء الانسان سعادة مماثلة . ففي سالانت يسود السلام ، والعدل والنظام الاجتماعي ، والغزارة ؛ حيث تدخل الثروات كمد البحر ، وتترك ثروات أخرى في محلها عند الجزر . ولكل صعوبة « علاج يسير » . ضربة عصا سحرية وكل شيء يتغير في الحال : سكان الحضر سعداء ، والقرويون سعداء ، والنساء سعداء ، وكذلك الأطفال ، والكهول . « كان الكهول ، وقد ذهولوا لرؤيتهم ما لم يجرأوا على أن يتمنوا رؤيته بعد مثل هذا العمر الطويل ، سيكون لغرط الغبطة المشوبة بالحنان ، رافعين أياديهم المرتجفة نحو السماء . . . » وفي الخارج يسود السلام . فلصدم هجوم الأعداء ، يكفي الوقوف في وسطهم ، وإلقاء خطبة عليهم . عندئذ يلقى الجنود سلاحهم ، ويتعاقب الجميع ، في بكاء ودموع .

ذلك أن فنيلون يهوى الدسوع ؛ إن أبطال « تليماك » يذرفون أنهاراً ، بل سيولا من الدسوع ، تغرق الكتاب . كاليبسو ، أوكاريس وفيثوس ؛ تليماك ، سنتور ، فيلوكليس ، وإيدومينييه ، يسكبون كثيراً من تلك الدسوع الغالية . إنه يريد أن يكون محبوباً ، رقيقاً ، حنوناً . إذ يقول في « رسالته عن سشاغل الأكاديمية » : أفضل الحبوب ، عن المذهل ، والعجيب ؛ ويقول فيه أيضاً إنه يود أن يسمح في اللغة بكل ما ينقصنا من تعبير ، يكون جرسه رقيقاً ؛ فيجيبه مدير الأكاديمية « الرقة التي تمتازون بها . . . » . كان محسناً ، كريماً ؛ ولقد عرف وياشر بسليقته كل طرق افتتان القلوب ، ما تقاوم منها وما تسلم .

ولكنه كان يعلم أيضاً أن خياله كان طموحاً ، ملحاً ، لا يقنع بالتحليق في « ما وراء الواقع » . كان علياً بقدرته على أن يكون متكبراً ، متجبراً ، بل كانت تكمن في نفسه قوات حية من الحقد . كم كان بعيداً عن الكمال ! كم كان تعساً بهذه المتناقضات ! نفس معذبة ، قلب كان فريسة للحن ، وللضجر ، ولذا كان يتطلع متألماً إلى « أغوار لا تشرح » في كيانه الأخلاقي ؛ فيحس عندئذ شعوراً من الاشمئزاز ، لأنه كان يرى فيه أفاعى — على حد قوله . إنه يتوق إلى مياه نقية تستطيع أن تروى غليله ؛ ويتحرق إلى الغفران الذي قد يمحو نقائص الدنيوى ، الدساس ، الطموح ، الممثل ؛ ويتمنى كمالاً

ليس في مقدوره أن يصل إليه بلا عون ؛ إنه يتألم من قلقه . هنا ولا شك ، سر نفوذ مدام جويون Guyon : إنها لم تنل هذه السيطرة العظيمة عليه ، إلا لأنه كان يشعر بحاجة لأن يصهر ويمحو الأغلال التي تثقل كاهله في نار التصوف . كانت مدام جويون قد كسبت طالبات مدرسة سان سير Saint-Syr (١) ، وكبار السيدات ، و مدام دي مانتون نفسها : كسب سرعان ما ضاع ، لأن هذه النفوس تتدارك خطأها عند أول إشارة . ولقد حاولت أن تكسب بوسويه : مهمة عسيرة جداً ، فانها لم تفلح حتى في استثارة أى رغبة عنده ، لأن إيمانه لم يكن في حاجة إلى هذا العون المشتبه فيه . إن هذه المرأة ، بصفتها امرأة ، هذه السيدة التي « لديها فكرة كبيرة عن نفسها » ، التي تباهى بأنها تنبأ ، وتواتيها الرؤى ، وتأتى بالمعجزات ، — كانت موضع كراهيته . عندما تدعى أن الدعاء ينبغي أن يكون فناء كلياً للنفس ، وأنها لا تستطيع أن تطلب شيئاً من الله ، ولا حتى عفواً عن خطاياها : انتهى أمرها ، إن مدام جويون ملحدة ، لن يستمع إليها بوسويه . أما عند فتيلون ، ذى القلب المهموم ، ذى القلب المحموم ، ذى الروح التي تبلغ من النبل أن تدرك نقائصها ، ولكنها لا تستطيع لاستغراقها في الحياة أن تتخلص منها — عند فتيلون ، كانت مدام جويون تأتي بمذهب الحب النقي .

الوسائط بين الله والانسان ، تلك الوسائط التي يبدو بعضها كشيئاً غليظاً ، والبعض الآخر دقيقاً وغير مادي تقريباً ، ولكنها مع ذلك تكون فواصل ، يقل احتمالها كلما وصل الانسان إلى هذه الدرجة من الرغبة حيث تبدو له عندها أقل عقبة — مثل لزوم حركة أو وجوب دعاء — أقوى العقبات ؛ هذه الوسائط بين الله ومخلوقه تريد مدام جويون أن تقضي عليها . ولما كانت حديثة في المذهب ، وقد تملكها رغبة شديدة في توجيه الضمائر ، فانها تقول لنا كيف ينبغي أن نعمل لكي نصل إلى هذه الدرجة العالية من الروحانية . فهي تصيح أن تعلموا العبادة ، تعلموا الدعاء : يجب أن تعيشوا على الدعاء ، كما يجب

(١) مدرسة أنشأها لويس الرابع عشر بمعاونة ممدادى مانتون لفتيات الطبقة النبيلة .

أن تعيشوا على الحب . تعالوا ، أيتها القلوب المسغبة ، تعالوا أيها المعذبون المساكين ؛ تعالوا ، أيها المرضى ؛ تعالوا أيها الخاطئون ، بالقرب من ربكم . تعالوا ، يا من لكم قلب .

إنك تضع نفسك بين يدي ربك ، بفعل من أفعال الايمان الحى ؛ تبتدىء بقراءة بعض نصوص من كتب الدين لا للتفكير والاستدلال بل لحصر الذهن فحسب . ثم تستغرق في نفسك بعمق ، وتجمع كل حواسك في دخيلتك . وحين تتأثر عاطفتك ، دعها تسترح في هدوء وسلام . فلو أنك حركتها أكثر ، لحرست روحك من غذائها ؛ يحسن أن تهضم ما تتذوقه في شئ من الراحة المملوءة بالحب والثقة .

وتتولد العادة ؛ فتبتدىء الدرجة الثانية من التعليم ، الدعاء في بساطة . ولا يلزم إلا قليل من الجهد ؛ ويزداد الاحتمال ؛ يكون الشعور بوجود الله أيسر ، وكأنه أقوى . ولا سيما إذا أفاءت الروح على الدعاء حباً صافياً ، متجرداً من كل ما لا يكون الحب ذاته ، وبالتالي حباً خالياً من التعرض . لا يجوز أن تطلب الروح شيئاً ، لا يجوز أن تقوم بالدعاء لتحصل على شئ من الله ، لأن الخادم الذى لا يخدم سيده إلا إذا كان يكافئه ، لا يستحق المكافأة . لا ابتهاج ، بل انتظر كل شئ . دعاء يكاد يكفى للاستغراق في التقوى : ليس الدعاء إلا شعلة حب تصهر الروح وتذيبها .

إن المسيحي الذى يرتقى الجبل المقدس يصل عندئذ إلى الاستسلام ؛ تجرد من كل عناية بالنفس ليسلم قياده كله لله . لا استدلال ولا تفكير . اطراح كل إرادة ، حتى ولو كانت طيبة . عدم اكترات بكل شئ ، سواء للجسد أو للروح ، بالخيرات الزمنية والأبدية ؛ ترك الماضى في غياهب النسيان ، والمستقبل للعناية الالهية ، وإعطاء الحاضر لله . فمن يستسلم له تمام الاستسلام فسرعان مايجوز الكمال .

عندئذ تختفى الصفة الذاتية الخاصة للفرد ، منشأ كل خبث . إذ يبعث الله أمامه حكمته تعالى ، كما ستبعث النار على الأرض لتفنى كل نجاسة في الانسان . النار لا تبقى ولا تذر ، ولا شئ يقاومها إلا وتفنيه . والحكمة الالهية مثلها ، تفنى كل نجاسة في المخلوق لاعداؤه للاتحاد الالهى . وإنه لاتحاد يجمل عن الوصف . وإذا نحن أردنا ، بالرغم من ذلك ، أن نعبر عنه بالألفاظ ، يمكن القول إننا

نشعر بمحبة علوية نغرقنا في السعادة . إن في التنازل عن الإونية ، في امتلاك اللانهاى ، للذة يستحيل على أى متعة بشرية أن نعطينا فكرة عنها . لافراغ بل غزارة . فالتنازل هو الكسب ؛ التخلي ، هو غم كل شىء . ليس علينا إلا أن نحب .

هكذا تقدم سدام جويون ، مخصصة لأول مرة بياناتها المسهبة ، إلى من يريد الاستماع إليها « وسيلة مختصرة وسهلة للدعاء ، يستطيع الجميع أن يباشروها بكل يسر ، وهكذا يصلون في قليل من الوقت إلى كمال رفيع » (١٨٥٦) .  
ولما كانت جريئة ، دساسة ، فقد كانت تحلم بمشروع تجديد دينى واسع . لم تجد أبداً ، لا في دوفينى ، ولا في أثناء تجولها في طرق بيمونت مع معاونها الأب لاكوسب ، وهى تبشر ، وتنتشر مذهب مولينوس ؛ ولا في باريس ، لم تجد أبداً رجلاً يقدر على أن يضى على مذهبها السعة والانتشار . كانت تتمنى أن يكون فيليون المصباح المشتعل الساطع الذى يضى الكنيسة المجددة ؛ وأن يبين كيف يجب أن نعبد « للسيد » فى تناول القربان ؛ كيف يجب أن نكافح الشيطان ؛ وجماع القول ، أن يوطد تحت قيادته سلطان المحبة الالهية .

ولعلها قد تكون فى نظر الآخرين امرأة مغامرة ؛ أما عنده هو فكانت المرشد الذى يدفعه نحو الكمال . كم كان من الصعب عليه أن يتخلى عن منطق المنطق البالغ الرقة والفطنة ! وأن يتنازل عن حكمته الانسانية ! عن كل تلك العناصر الدنسة التى يناقض وجودها إرادته الطيبة ويؤذيها ! ولكن الحمية الصوفية التى كانت تذكىها هذه المرأة ، كانت تقضى رويداً رويداً على هذا الدنس . « أكن لك إخلاصاً متزايداً ، لا يفوقه إلا إخلاصى لله ، وهو وحده عليم بمقدار شكرى لك . » وكان عرضة لنكسات ، وغفلات ، واندفاعات إرادية ، ولكراهية ، ونفاذ الصبر ، والكبر ، ونوبات من الاجداب ، باطنياً بالنسبة إلى الدعاء ، وظاهراً بالنسبة إلى الصلة بالناس : فكانت تقومه ، وتدفعه إلى التقدم ، وتزيل عنه هذه العوائق . فكان يستشعر تجدداً من السذاجة والبراءة : « يا لسعادة اللانهاية فى تصاغرننا إلى غير شىء ! » ؛ وكان يشعر أنه يصير إلى ما كان يود أن يكون ، ، فانياً ، محروماً ، مثل طفل صغير . عندئذ كان ينظم أشعاراً ، على منوال الأغاني :

*O pur amour, achève de détruire  
Ce qu'à tes yeux il reste encor de moi.  
Dieu vouloir, daigne seul me conduire,  
Je m'abandonne à ton obscure foi . . . (١)*

*C'est peu pour toi que n'avoir plus de vie  
Et qu'abimer ce moi jadis si cher . . . (٢)*

ولم يكن هذا بكاف ؛ فقد كان لا يزال باقياً في هذه الأشعار شيءٌ صريح ، واضح ؛ فقد كان يلزمه بعض التثنية ، والهمهمة ، كالأطفال . فكان يعود دائماً إلى هذا : أى متعة فى أن يكون المرء مخلوقاً يزعم أنه مدين بوجوده لنفسه ، سلى بالخبث ، قلق ، تعس ، معذب على الدوام — ولا يصبح الآن ، إلا طفلاً صغيراً ، نائماً على ذراع « الأب » ! وكانت تكتب له : « لا بد من أن تصبح يوماً بسيطاً مثلى . كلما كنت حكماً ، كنت بسيطاً وصغيراً ، بفرض أن الايمان هو أن يقلع المرء عن أن يكون رجلاً كبيراً ليصبح طفلاً صغيراً . » ويكتب هو لها : « إني أفتح لله كل امتداد قلبي ، لأتلقى روح الطفولة والصغر ، هذا الذى تتحدثين عنه . » — « يخيل إلى أن الله يريد حملي كطفل صغير ، وأنى لا أستطيع أن أخطو خطوة وحدى ، دون أن أتعثر : وعلى شرط أن ينفذ إرادته فى نفسى ، وبنفسى ، فسيكون كل شئ حسناً ، مهما حدث . »

سيكون كل شئ حسناً . حتى الاضطهادات ، حتى التفسيرات الخاطئة لمذهب مدام جويون ؛ لأنه كان يعدها تفسيرات خاطئة ، ولم ير فى مدام جويون شيئاً يزيد عما نراه فى أكبر المتصوفين الذين اعترفت بهم الكنيسة : القديسة تيريزا قديسة يسوع ، والقديس يوحنا قديس الصليب . إلا أن قوماً لم يجبلوا على تذوق عذوبة الحب الصافي ، قابضين أيديهم الغليظة على تلك الزهرة الرقيقة للتقوى الجليلة ، كانوا يزعمون أنها ليست جديرة بمذابح المعابد . حتى الحكم المدين ، الصادر من روما بعد معارك طويلة ، لم ير فيه إلا امتحاناً ؛ فالتصاغر ، وقبول هذا الحكم ، وإبلاغه فى خطاب رعوى إلى المؤمنين فى أسقفيته ، لم تكن عنده إلا وسيلة للقضاء على رجل الجسد ، وقبول التضحية

- (١) أيها الحب الصافي ، أنجز تدمير — ما تراه باقياً من نفسى — أيتها الإرادة الالهية — اقبل أن تقوديني وحدك — إني أستسلم لدينك الغامض . . .
- (٢) إنه لشئ قليل بالنسبة إليك ألا تكون لى حياة — وأن أبلغى إنيتى العزيزة على . . .

النهائية ، وإبطال آخر مقاومة للكبرياء ، والانتصار بالله . Inveni portum : لقد وجد الطمأنينة التي لم يعرفها أبداً قبل اتصاله بمدام جويون ، والتي لا يريد أن يفقدها حتى مماته . وكان يعترف بأخطائه ، إذا كانت أخطاء ؛ ويفرض على نفسه العقاب ، إذا ارتكب خطيئة : ولكن ذهنه لم يكن فيه محل للخطأ ، ولم يكن في مقدور قلبه أن يأنم ؛ كان غير شيء تماماً ، رساداً — بقية حب يبلغ من القوة أنه لم يجد قناعة إلا في موت الكائن الذي اختار أن يحرقه . إن مأساة سيره الباطني نحو الحب الصافي ، لأهم عند فنيلون من المأساة التي يتجه إليها اهتمامنا عادة — الجدل مع بوسويه ، الرسائل ، البحوث ، الردود ، الردود على الردود ، الألفاظ ، المرافعات ، القرارات . مأساة خفية ، لا يمكن لرجل الشارع أن يكون لديه ولو فكرة عنها : هل يستطيع أن يتصور الصفة المؤثرة ، الصفة الخطيرة لتحول الماهية البشرية هذا إلى ماهية إلهية ، لهذا التطهر بالنار؟ — « عندما أتحدث عن الحب الصافي ، لا أقصد الحب الحار الذي لا يعمل إلا على تجميل من يشعر به ، والذي يبدو كأنه مخصص له : هذا الحب غير مكمل ، مع أنه الحب الذي يعده الجهال ذروة القداسة . لست أرى حبا صافياً إلا الحب القاسي ، المبيد ، الذي لا يجمل أو يزين صاحبه ، بل ينتزع منه كل شيء بلا رحمة ، لكيلا يبقى فيه شيء ، وبذا لا يحول شيء دون انتقاله إلى الآخرة . وفيما عدا ذلك لا يمكن أن يكون للحب الصافي وجود . كل عنايته تنتجه إلى أن يقبّح ، وينتزع ، ويهلك ، ويضيع ؛ لا عيش له إلا في الهلاك ؛ إنه مثل هذا الوحش الذي رآه دانيال والذي يأكل ، ويسحق ، ويلتهم كل شيء . »

\*\*\*

كان لمدام جويون أتباع في كل أنحاء أوروبا ، وقد نشر بواريه Poiret مؤلفاتها ، بواريه الذي لم يكن أقل من علموا « لاهوت القلب » . كان المتحمسون يطاردون بلا جدوى : ما من قوة كانت تتغلب عليهم ؛ وكيف يمكن ردهم إلى جادة العقل ، ماداموا يرفضون التعقل ؟ كانوا يتزايدون ، ويتكاثرون ، أولئك الجشعون ، أولئك المتحمسون ، بل أولئك المرضى الذين ، وقد غالوا في نصائح الأساتذة المغالين ، انتهوا إلى البحث عن الله في غليان أعصابهم ، في اختلال أذهانهم ، في الجنون . لقد كانوا يرفضون أي إجبار ، إجبار الكنائس الأهلية ، التي كانت

تبدو لهم كسجون ؛ وإجبار رجال الدين ، الذين كانوا يسمونهم الطغاة ؛ بل حتى إجبار المجتمع ، الذي كان يضطهدهم . ويعدون التقدم فساداً ، والعلم انحلالاً . ويقبلون على وجه العموم الخطيئة الأولى ، والخلاص . أما وقد انتهت فائدة هذا الخلاص الأول ، فلا بد من خلاص ثان ، مجيئه وشيك . لقد انتهى الزمن ، إن « النبي الكذاب » Antéchrist يسيطر على الدنيا ، التي لم يعد فيها مسيحيون حقيقيون :

*Cet Antéchrist est né  
 Ja plus d'un an passé.  
 Le temps est arrivé  
 Qu'il soit manifesté.  
 Je l'ai vu en esprit  
 Par une claire nuit,  
 Sur un théâtre grand  
 Riche et resplendissant,  
 Couvert d'un pavillon  
 Bordé à l'environ,  
 Tout tendu de velours  
 Incarnat à l'entour.  
 Dessus un lit mollet  
 Demi couché il est,  
 Il n'est plus en bas âge  
 Ains un grand personnage.  
 Sa gloire est sans pareille,  
 On l'estime à merveille ;  
 Fait paraître son train  
 De nuit, en grand festin :  
 Il a valets en nombre,  
 Comme une armée innombre  
 Du peuple aux environs  
 De toute nation . . . (١)*

(١) لقد ولد هذا النبي الكذاب - منذ أكثر من عام - وقد حان الوقت - لكي نزيح عنه الستار - لقد رأيته في المنام - ذات ليل مضى - على مسرح كبير - غنى ساطع - يظله سرادق - منقوش الحروف - كله من مجل قرمزي - مستلقيا على فراش وثير - ليس صفيير السن - بل يبدو كرجل كبير - إن مجده ليس له نظير - يقدره الناس أكبر التقدير - يجعل من حياته في الليل - حفلة كبيرة : عنده عدد كبير من الأتباع - كجيش عربرم - يحيط به حشد - من كل شعب انطوانيت بورنيون ، النبي الكذاب المكشوف ، أمستردام ١٦٨١ ، الفصل الثالث والعشرون ) .

بدأت النكبة الأولى : الحروب ؛ وسوف تتبعها الأخرى ، الطاعون ، والنار ، والحجاعة . ولكن الله لن يدع المؤمنين يهلكون . عن قريب سيأتي المسيح ، جسماً ، وروحاً ، وألوهية ، وفي مجد عظيم ، حينئذ يبدأ عهد السعادة الصحيحة . وكثيراً ما كان أولئك المتحمسون يؤسسون الجمعيات ؛ مثل جوهان جورج جيتشل ، الذي أسس جمعية الاخوان الملائكيين : فعلى أشياعها أن يحولوا الناس إلى ملائكة ، بالتخلي عن كل المشاغل ، وكل الأعمال ، بالناسل والخمود . أو مثل جين ليد التي أسست مذهب « صوفي المتصوفة » ونظمت شيعة « الفيلاذلفيين » ، والتي وجدها جيتشل ضيقة الأفق ، ولا تتفق بساطتها مع ذوقه . كانت تقنع برؤى متواترة ، وتنبؤات كالأتية : سوف تفتح الأختام السرية لكتاب الحمل ، سوف يطارد أتيليا العظيم التنين ، وسيرفع الفيلاذلفيون راية المحبة المطرزة بالاسم الملكي ، وسينتشر الانجيل في كل مكان ، وسوف تدين أكثر بلاد الأرض تأخراً للمسيح المنقذ . . . .

ولم يكتفوا بالاستسلام العلوى ؛ بل كانوا يرون رؤى إعجازية ، ويقعون في نشوات وغيبوبات ؛ لم يعد الأمر يتعلق بالمتع الروحية فحسب بل بالمتع الحسية أيضاً . كانوا يكافحون الشيطان ، الذي كان يتبدى لهم في صور مرعبة ؛ ويخرجون منتصرين من تلك المعارك المضيئة . كانوا أنبياء ، شافين ، صانعي معجزات : يالصانعي المعجزات المساكين ، الذين سجنهم الناس ، ورجوهم بالحجارة ، الذين انتقلوا من مدينة إلى مدينة ، ومن بلد إلى بلد ، يتعقبهم أصحاب السلطان ، وفي نفس الوقت جنونهم . وكانوا يجدون سلوة في التفكير في أن الشيطان هو الذي يجر عليهم هذا العذاب ، لأنه كان يرى فيهم مدرسى سلطانه وعدة الله . وكانوا يموتون تعساء ، على أسرة المستشفيات ؛ وأحياناً يموتون في عذاب ، مثل كورينوس كوهلمان ، الذي ، بعد أن اخترق ألمانيا وهولندا وانجلترا وفرنسا وإيطاليا وتركيا ، باذراً الحب في أراض مجذبة جرداء ، محاولاً إنشاء الجمعيات في طريقه ، معلناً أن بابل سوف تسقط وتبتدى الملكية الخامسة للصالحين - أحرقت في موسكو عام ١٦٨٩ .

فلنفكر في عددهم الكبير ؛ وفي بينهم من علاقات ، وروابط ، وصلات ؛ وفي الكتب التي ينشرونها بوفرة ، والتي تجد دائماً مترجمين في كل بلد ، شبكة « تيوصوفية » théosophique واسعة تمتد خلال أوروبا . فلنفكر

في طبقة أخرى من الأفراد الذين يتغذون بأحلام أخرى ؛ في أشياع « الصليب الوردى » الغامضين ، في القبليين Cabalistes ؛ في الموقفين الذين ينشدون حجر الفلاسفة ، طائنين أنهم سيستطيعون إذابة مظاهر روح الكون الموحدة بعضها في بعض ؛ حينئذ سوف تتكون لدينا فكرة ، عن تخمر هائل متصل .

إن الشعور يهزمه العقل ، ولكنه لا يقبل هذه الهزيمة . ضد أنوار المعرفة ، كما يفهمها الفلاسفة ، يزعم « الملهمون » les illuminés أن لديهم نارا تنيرهم وتشلهم في وقت واحد . ضد العلم الذي يستأسن المستقبل على تقدمه ، يعلن « اليتوصوفيون » أن لديهم علما مباشرا لدنيا ، هو وحده الذي يحسب له حساب . إن سواد المفكرين المعاصرين يقولون : « المعرفة » ؛ ولكن أقلية تجيب : « المحبة » . إن أنطوانيت بورنيون ، في حياتها المغامرة المتعدية ، حياتها المضطهدة - تلك المرأة العجيبة التي انتهى الأمر بها إلى ألا يكون لها إلهة عاطفية ؛ التي تتصل مباشرة بالله وتحتقر المعرفة لأنها تحجب الحكمة الغامضة التي تكفيها كل الكفاية ؛ والتي تعلن أنه حتى لو اندثر الانجيل ، لوجد المخلوق في نفسه ناموسا يكفي ليقوده نحو الحقيقة ونحو السعادة (١) - أنطوانيت بورنيون هذه ، واجهت ذات يوم بعض الهولانديين من أشياع ديكارت . « لقد عقدت اجتماعات مع الديكارتيين ، وكونت عن مبادئهم فكرة مروعة . . . لم يرضوا عنها قط ، ولم ترض عنهم بالمثل . لم يكن منهج الديكارتيين من شأنها ؛ لم تكن تريد أن نستشير أنوار العقل ، على حين أن مبادئهم أنه يجب أن نفحص كل شيء بهذا الحك . وكانت تؤكد « أن الله قد كشف لها ، بل قال لها صراحة إن غلطة الديكارتيين هذه ، هي أسوأ الغلطات ، وألعن إلحاد رآه العالم ، وأنها كفر بسين ، أو إنكار لله ، الذي يجلب محله العقل الفاسد . » يضاف إلى ذلك ما كانت تقوله عن الفلاسفة من أن « مرضهم مرده إلى أنهم يريدون فهم كل شيء بنشاط العقل البشري ، دون أن يتركوا أى مجال لاهام الايمان ، الذي يتطلب إبطال عقولنا ، وذهننا ، وفهمنا الضعيف ، لكي ينشر الله فيها ، ويذكر ذلك النور الالهى . وبغير ذلك ، لا يقتصر الأمر على أننا

(١) النور المتولد في الظلمات ، انفرس ١٦٦٩ - الطبعة الثانية ، أستردام ، ١٦٨٤ .

لا نعرف الله حتى المعرفة فحسب ، بل إن الله ومعرفته الحقيقية يبتعدان أيضاً عن النفس بفعل نشاط عقلنا هذا ، وذهننا الفاسد . وإن هذا لنوع من الكفر ، وإنكار الله . . . (١)»

\*\*\*

«عندما ألغى القرن الثامن عشر ، أو ظن أنه ألغى — والمعنى واحد — صورة الاله ذى الحمية البيضاء ، الذى يشمل كل مخلوق بنظره العطوف ، ويحميه يمينه ، لم يبلغ فى نفس الآن المسألة الدينية . لأن الرغبة الصوفية شئ ، والصورة التى نتخذها رمزاً لهذه الرغبة ، ترضية لأنفسنا ، شئ آخر . فاذا زال الرمز ، بقيت الرغبة . إن الانسان عطش إلى أن يجد فوقه ملاذا سامياً يبت إليه رغباته المكبوتة ، التى تصر على أن تنبجس من أعماق نفسه (٢) .»

(١) بييربايل ، القاموس ، باب بورنيون ، بيان ك .

(٢) بيير ابراهام ، شخصيات عند بلزك ، ١٩٣١ ، ص ١٥ .

obeykandl.com

## خاتمة

ما هي أوروبا؟ بغضاه محتدمة بين جيران يتقاتلون . منافسة بين فرنسا وانجلترا ، وبين فرنسا والنمسا ؛ حرب حلف أوجسبرج ، حرب الوراثة الاسبانية (١) حرب عامة ، كما تذكر المؤلفات التاريخية التي لقيت صعبوية في تابع تفاصيل هذه المعارك المهوشة . الاتفاقات لا تؤدي إلا إلى هدنة قصيرة ، والسلام لم يعد إلا حيناً إلى الوطن ، والشعوب تنهك بينما تستمر الحرب : والجيش تعاود القتال في كل ربيع .

إن ليبنتز ، وقد رأى استحالة منع الأوربيين من التقاتل ، يعرض عليهم توجيه هميتهم الحربية الجنوبية إلى الخارج . فالسويد ودولونيا تغزوان سيبيريا وروسيا الجنوبية ، وانجلترا والدانمرك تختاران أمريكا الشمالية من نصيبهما ؛ ويكون لاسبانيا أمريكا الجنوبية ، وهولاندا بلاد الهند الشرقية ؛ وترى فرنسا أفريقية في سواجتها ، فلتغتصبها ، ولتتوغل حتى مصر ، ولتبتسط حتى الصحراء سلطان زهور الزنبق . وهكذا تستغل كل تلك الجنود ، كل تلك البنادق ، كل تلك المدافع ، ضد البرابرة ، وضد غير المؤمنين ؛ وهكذا تتباعد المطامع والمصالح في أقاصى الأرض ، ولا تتصادم بعد ذلك أبداً .

أما الأب سان بيير فلا يقنع بإبعاد المنازعات . «عندما فكرت في شأن القسوة ، والقتل ، والعنف ، والحريق ، وغير ذلك مما تسببه الحرب من خراب ،

---

(١) حرب حلف أوجسبرج : حلف وقع عقب فسخ أمر نانت بين النمسا وإسبانيا والسويد وبعض أمراء ألمانيا ووليم أورانج ضد لويس الرابع عشر . وامتدت الحرب تسع سنين وانتهت بصلح رزويك (١٦٨٨ - ١٦٩٧) .

حرب الوراثة الاسبانية : بين فرنسا والدول التحالفية : النمسا وانجلترا وهولاندا بمناسبة جلوس فيليب الخامس (حفيد لويس الرابع عشر) على عرش اسبانيا ، انتهت بمعاهدة أترخت (١٧٠١ - ١٧١٣) . [ المترجمان ]

ولما كنت شديد التأثر بما أصيبت به فرنسا وغيرها من شعوب أوروبا ، جعلت أبحث فيما إذا كانت الحرب شرّاً ليس له دواء ، وفيما إذا كان من المحال جعل السلام مقبلاً . . . (١) « أجل ، فلنجعل السلام مقبلاً ، بل دائماً ! ولتجعل الأملاك الحالية مكنسبة إلى الأبد ، لا تقبل أى تغير أو تصرف ؛ ولكيلا يكون لدى دولة جيوش أكبر مما لدى جيرانها ، تحدد القوات العسكرية ويعين عددها ، وليكن اثني عشر ألف فارس على الأكثر . وإذا تولد نزاع بالرغم من كل ذلك ، يحتكم فيه إلى « الاتحاد » ، وعند الاقتضاء يعلن « الاتحاد » الحرب على الأمير الذي يرفض الخضوع للنظام الذي وضعه ، أو الازدعان للحكم الذي أصدره . وينعقد مجلس مستديم من مندوبين مفوضين في مدينة حرة ، محايدة ، مثل أترخت ، كلونيا ، جنيف ، أو أكس لاشابل . . . إن كلمة تفتن الأب سان بيير ، وهو ينظم — بدقة الخياليين — تفاصيل حلمه ؛ كلمة يخالها تتضمن كل الآمال ، كلمة « أوربي » : محكمة أوربية ، قوة أوربية ، جمهورية أوربية . فليسمع الناس له ، حينئذ تصبح أوروبا جمعية ، بدلا من أن تكون ميداناً للقتال . ولكن عندما أراد لينتز في عام ١٦٧٢ أن يشرك فرنسا في مشروعه العظيم ، كانت الحرب قد أعلنت على هولاندة ؛ وليس من الحق أن لويس الرابع عشر قد قابل هذا الفيلسوف الذي قدم من ألمانيا ليحضه النصيح . وعندما جعل الأب سان بيير ، بعد أربعين عاماً ، يقيم سراياً فوق سراب ، تركه معاصروه يبنى أحلامه السابقة لأوانها في الخلاء . ولما كان الأب سان بيير ، يمتلي بحمية جديدة ، ويبحث عن عون ، فقد أبلغ خططه إلى لينتز ، ذلك البطل العجوز في قضية السلام الكبرى ، فرد عليه لينتز في حزن شديد . رد عليه بأن أكثر ما يعوز الناس ليتخلصوا مما لا يحصى من الشرور ، هو الإرادة ؛ وأن الأمير الهام يستطيع ، في أسوأ الظروف ، أن يرد غائلة الطاعون أو المجاعة عن حدود بلاده ، إلا أن تفادى الحروب أشق من ذلك بكثير ، لأن الأمر لا يتعلق بقرار رجل واحد ، بل يتطلب مشاركة الأباطرة والملوك . ولا يوجد الوزير ، على حد قوله ، الذي يستطيع أن يعرض على الامبراطور

(١) شارل كاستيل دي سان بيير ، مذكرات لجعل السلام دائماً في أوروبا ، كولونيا ،

١٧١٢ مقدمة . Ch. Castel de Saint-Pierre, *Mémoires pour rendre la paix perpetuelle en Europe*, Cologne, 1712. Préface

أن يتنازل عن حقوقه في وراثة عرش إسبانيا ، وبلاد الهند ، لقد كان الأصل في إدخال الملكية الاسبانية إلى العرش الفرنسي ، مصدر خمسين عاماً من الحرب ؛ ويخشى أن الأصل في إخراجها منه قد يعكس صفو أوروبا خلال خمسين سنة أخرى . « هناك في أغلب الظروف ، أسباب مقدره تحول دون أن يكون الناس سعداء . . . (١) »

\*\*\*

ما هي أوروبا ؟ شكل متناقض : قطعي معين ، وغير ثابت في وقت واحد . اشتباك من الحواجز ، أمام كل منها أناس صناعتهم طلب إجازات السفر ، ودفع المكوس ؛ كل العوائق الممكنة تقام في سبيل الاتصالات الأخوية . حقول نعنى بتحصينها حتى لا نجد وقتاً لاستغلالها ؛ ما من قيراط واحد من الأرض إلا كان محل نزاع من قرون ، وكل مالك يسوره بدوره . لم تعد هناك مساحات واسعة كبيرة حرة ؛ كل شيء منظم ، معين ، محدد ؛ إننا نشعر بضيق واختناق ؛ لا يوجد محل خال : « لقد قدمت إلى الدنيا متأخراً ، حتى إنى لا أكاد أجد فيها شبراً من الأرض لأبنى فيه لنفسى مقراً ، وقبراً (٢) . »

هذه الحدود المعينة ، نجعلها غير محتمة ، مادمننا نغيرها تبعاً للفتوحات ، والمعاهدات أو حتى بمجرد وضع اليد . هذه الحواجز ، نقدمها ، ونؤخرها ، ونزيلها ، ونقيمها من جديد ؛ ولا يكاد الجغرافيون ينتهون من وضع الخرائط الجديدة ، حتى تصبح هذه الخرائط عديمة القيمة (٣) . ممالك بأسرها نريد أن

(١) ليبنتز إلى الأب دي سان بيير . من هانوفر ، ٧ فبراير ١٧١٥ - اقرأ لنفس المؤلف ، ملاحظات عن مشروع السلام الدائم للأب سان بيير ( مصنفات ليبنتز ، طبعة فوشيه ، الجزء الرابع ) .

(٢) مارانا : محادثات بين فيلسوف ورجل منعزل عن موضوعات شتى أخلاقية وعلمية ، ١٦٩٦ ، ص ٢٩ . انظر أيضا ص ٢٨ : « يحاول الناس فض المنازعات بالعنف والحدة ، فالقوى سيتغلب دائماً على من كان أقل استعداداً للدفاع عن نفسه ؛ وطالما هناك ولايات وممالك ، وشعوب ، ستبقى العداوات والحروب ، تماماً كما ستوجد الرذائل طالما هناك أناس في الأرض . . . »

(٣) جريدة العلماء ، ١٣ إبريل ١٦٩٣ . بمناسبة « الحالة الحاضرة للشعوب الأوربية » ١٦٩٣ : « لا يمر يوم تقريباً إلا وتعرض فيه لتغيير جديد . »

نجعلها تكملة للمالك أخرى ، وجبال البرانس نريد أن نلغيها . ومن هنا هذا التناقض الداخلى : إن أوروبا لمركب من أشكال تزعم أنها لا تمس ، بينما هى لا تكف عن المساس بها .

من جهة الغرب يسود الاطمئنان : فلن تأتى عن طريق البحر أساطيل بربرية كبيرة ؛ ولن يقبل الغزاة الأجانب لتخريب القرى العريقة ، وإذا حدث قتال ، فلن يكون هذا — والله الحمد — إلا بين إخوان ؛ انجليز ، فرنسيين ، برتغاليين ، وإسبان . — وفى البحر الأبيض المتوسط ، جعل الأتراك يأتون بأعمال مهينة حيال السرياح والبلاد الواقعة على الشاطئ ؛ إلا أنهم لا يمثلون خطراً داهماً — أما من جهة الشرق ، فبما للمفاجأة ! فيما مضى ، كان على أوروبا أن تدافع عن نفسها أمام جيوش الملل ، التى جاء دورها لتقبض على زمام المدنية . أما الآن فلم تعد المسألة بهذه السهولة . فهام أولاء الملايين من الناس يظهرون على أبواب الشرق ، مطالبين ، تنفيذاً لارادة القيصر ، بالانضمام إلى أوروبا . يطلبون أن ترسل إليهم منتجات أمستردام ، ولندن ، أو باريس ؛ ونماذج أيضاً وأساتذة ؛ فهم يخلقون لحاهم وشعرهم ويغيرون ملابسهم ويدرسون اللغة الألمانية . . . لكن نفوسهم ، ترى هل يغيرونها بمثل هذه السرعة ؟ هل سيقنعون بدور التلامذة المتأخرين ، الذين ينصتون فى تواضع إلى دروس نسائية سامية ؟ وإذا نحن لبينا رجاءهم ( وكيف لا نلبيه ؟ ) أفلا يجتمل أن يعرضوا علينا يوماً حكمتهم الخاصة مقابل حكمتنا ؟ أما كونها حكمة أو جنوناً ، فهذا هو السؤال الذى سيعرض فيما بعد . لكن أوروبا تشعر من الآن بشئ من الضيق ، فقد فقدت توازنها بفعل أوروبا المنافسة هذه ، بفعل هذا الامتداد والتقليد والتزييف لأوروبا التى ظهرت على حدود الشرق .

أوروبا ، أرض النزاع والحسد ! الحسد والألم والمرارة . فاللاتين يحتقرون الجرمان ، لضخامة جرمهم ، وجفوة خلقهم ، وبلادة ذهنهم ؛ والجرمان يحتقرون اللاتين ، المنهوكين ، المنحلين . واللاتين يتشاجرون فيما بينهم ؛ يبدو أنهم يتألمون حين يضطرون إلى الاعتراف بمزايا شعب مجاور ، فلا يخطر ببالهم أبداً سوى النقائص . مثل معطف أزموديه ، الشيطان الأعرج ، حيث ترى صوراً لا تحصى منقوشة بالخبر الصينى : فليس بينها صورة جميلة ، بل كلها قبيحة : سيده إسبانية متشحة تغازل أجنبياً فى الطريق ؛ سيده فرنسية تتمرن أمام المرآة

على حركات مغرية جديدة ، لتجربها على قسيس شاب ، يتقدم إلى مدخل غرفتها ، وقد جمل وجهه بالأحمر وبخال اصطناعي ؛ جماعة من الألمان ، غارقة في الفوضى ، وقد صرعهم النبيذ ولوثهم الطباقي ، يحيطون بمائدة تفيض بآثار فسقهم ؛ انجليزى يقدم إلى رفيقته بكل رشاقة غليوناً وقدحا من الحجة . . . (١) وبالمثل ، أدخل إلى حديقة السيد سبكتاتور: تجرد الأزهار ، بمجرد أن تصبح شعاراً للشعوب ، تفقد بهاءها وشذاها ؛ فان أريج زهور إيطاليا بالغ القوة ، يؤذى المخ ؛ وأريج زهور فرنسا - ولو أنها زاهية ، فاتنة ، حية - ضعيف وعابر ؛ وزهور ألمانيا وبلاد الشمال إما أن أريجها ضعيف وإما أنها ليس لها أريج ، وإذا كان لها رائحة فهي كريهة على كل حال (٢) .

\*\*\*

وسع ذلك ، فاذا استمع المرء مدة طويلة ، كما استمعنا ، إلى الصيحات والشكاوى التي تصاعد من هذه الأراضي المعذبة ، فانه يسمع أيضاً ، وسط التحرش والتأنيب ، أصوات الكبرياء . يسمع أنشودة تتعالى شيئاً فشيئاً تمجيداً لمزايا أوربا التي لا تستطيع أى قوة في الدنيا أن تعادلها ذكاء ، وقوة ، وظرفاً ، وبهاء .

صحيح أن أوربا أصغر أقسام الدنيا الأربعة ؛ ولكنها أجملها ، وأخصبها ، إذ ليس فيها قفار أو صحراء ؛ كما أنها أكثرها استثماراً ؛ ارتقت فيها الفنون العقلية والميكانيكية إلى نضرة ليس لها مثيل . فليمدح الآخرون ، إذا شاءوا ، العجائب التي تكتشف في الصين ؛ « هناك ضرب من العبقرية لم يخرج بعد من حدود أوربا ، أو على الأقل لم يبتعد عنها كثيراً ولعله غير مسموح له أن يمتد إلى مساحة واسعة من الأرض مرة واحدة ، ولعل القدر يفرض عليه حدوداً ضيقة . فلنتمتع به طالما نمتلكه ؛ ومن خير مزاياه ، أنه لا يقتصر على العلوم وعلى الدراسات النظرية الجافة ، بل يمتد بنفس النجاح حتى فنون اللهو والتسيلية التي أشك في أن شعباً من الشعوب يقف فيها معنا على قدم المساواة (٣) . »

(١) لوساج ، « الشيطان الأعرج » ، الفصل الأول .

(٢) سبكتاتور ، رقم ٤٥٥ .

(٣) فوننل ، محادثات عن تعدد العوالم ، الأسمية السادسة .

ومهما كانت أوروبا منقسمة على نفسها ، فإنها تتحد بمجرد أن تواجه القارات التي عرفت كيف تستعبدتها ، والتي تستطيع أن تتغلب عليها كلما لزم الأمر . ما زالت باقية في أذهان شعوبها ذكريات الرحلات البحرية الباسلة ، والاكتشافات ، والسفن الموسوقة بالذهب ، والأعلام المجدبة التي رفعتها على أنقاض المالك البربرية . ولا زالت تشعر ، على حد قولها ، إنها « سهولة » ، و « محاربة » . « ولو أن أوروبا أرادت أن تذهل الشرق والغرب ، لأذهلتها قبل أن تقرر ذلك » . — « عند أول إعلان للقتال يصدره أمراء أوروبا ، يجردون رجالا يحملون السلاح طواعية — لا تدفعهم إلا رغبة واحدة هي اكتساب المجد — أكثر ممن يستطيع الآسيويون والافريقيون أن يجمعوا بفضل الذهب ، والفضة ، والوعود. (١) » إن أوروبا — وإن كانت ممزقة ، مجروحة لوعبيها التام لابتعاستها فحسب ، بل بأخطائها أيضاً ، وإن كانت تندم على فقدان وحدة العقيدة فوق ندمها على كل ما تشعر به من خسار ، وإن كانت يائسة من أن تدعى « بالمسيحية » كما كانت تدعى فيما سبق — إن أوروبا لازالت تحتفظ مع ذلك بشعور من امتياز يخصها وحدها ، من بدعية تزيدها كل مقارنة ظهوراً ، من قيمة موقوفة وفريدة .



ماهي أوروبا ؟ تفكير لا يقنع أبداً . إنها لا تكف أبداً ، دون أن تشفق على نفسها ، عن تتبع بحثين : أحدهما في سبيل السعادة ، والآخر في سبيل الحقيقة ، وهو ألزم لها ، وأعز . لا تكاد تجد حالة توفى هذه الضرورة المزدوجة ، حتى تحس ، وتعرف ، أنها لا تملك بعد إلا الموقوت ، إلا النسبي ، وبصورة غير محققة ؛ وتعاود بحثها المستيثس الذي تجد فيه مجدها وعذابها .

وفي خارجها ، كتل بشرية ، لم تلمسها المدنية ، تعيش بلا تفكير ، قانعة بالحياة . وأجناس أخرى تحس أنها بلغت من الشيخوخة والسأم ما يجعلها تكف عن قلق مضن ، وتستغرق في جهود تدعى أنه حكمة ، وفي عدم تزعم أنه كمال .

(١) لويس دي ماي ، « السائح الحذر » ، جنيف ، ١٦٨١ ، المقال الرابع « عن أوروبا عامة » .

وأجناس أخرى أمسكت عن الاختراع ، مكثفة بالتقليد على الدوام . أما في أوروبا ، فنحن ننفق في الليل النسيج الذي نسجه النهار ؛ ونجرب خيوطاً أخرى ونصنع لحماً أخرى ، وفي كل صباح نسمع صخب الأنوال التي تصنع الجديد ، في اهتزاز وارتجاج .

وإذا كان ذلك العامل الطامع قد استشعر يوماً أنه يستطيع أن يتوقف وأن يرتاح — لأنه أنتج أخيراً أروع تحفة — فأنما كان ذلك في العصر الكلاسيكي . هل كان يستطيع أن يخلق أشكالاً أجمل وأمتن ؟ أشكالاً تبلغ من الجمال والمثانة ما يجعلها تنال إعجابنا اليوم ، وتكون جديرة بأن تعرض كمنادج لأبنائنا وأبناء أحفادنا ؟ بيد أن هذا الجمال نفسه يفترض أماناً في الأذهان التي أنتجته . لقد وجدت الكلاسيكية وسيلة لكيلا تطرح الحكمة القديمة ، ولكي تباشر الحكمة المسيحية ؛ ولتحقق الاتزان بين مقدرات النفس ؛ ولتبنى النظام على أساس القناعة والاعجاب ، ولتأتي بمائة معجزة أخرى ، ولنجمل كل شيء في كلمة واحدة ؛ لتعرض على الناس حالة تقرب من الطمأنينة . حتى أن أوروبا ، وقد سعدت بتأمل هذه النتيجة الجديرة بالذكر ، توقفت لحظة . لقد توهمت ، هنيهة ، أن في مقدورها أن تتوقف قليلاً في وسط آمال وأوجه نظر تبلغ من الصحة والعظمة أنها لن تجد أبداً أضبط منها أو أكمل . أميل لم يطل ، بل سرعان ما أنكر ؛ ميل إلى التوقف ، أكثر منه توقفاً صحيحاً ، لأن أوروبا لم تكف أبداً عن احتمال قانونها الخاص ، قانونها القاسي . قبل أن ينتهي العلماء ، في دنيا تقيم منطقها على الارتضاء المختار للسلطة ، من شرح مذاهبهم وما بها من فوارق دقيقة ، جعل علماء آخر يلفتون الأنظار إلى ما في هذه السلطة نفسها من أخطار وسوء استعمال ، ونقائص ، وانتهوا إلى رفض كل قيمة لفكرة السلطة ، كالكافرين كل ما فيها من تجاوز ومغالاة . هكذا بدأ العمل في البحث من جديد ، خفية ؛ وتولد الاضطراب تحت المظاهر الهادئة ؛ وجعل الناس يسعون نحو سعادة أخرى ، نحو حقيقة أخرى ؛ وأخذ القلقون ، محبو الاستطلاع — الذين كانوا مستندين ، مضطهدين ، مستخفين فيما سبق — يظهرين في وضوح النهار ، ويتقدمون ، ويشتهرون ، ويطالبون بمكان القيادة والرؤساء . تلك هي أزمة الضمير التي شهدناها ، فيما بين القرن السابع عشر والثامن عشر .

\*\*

لكن ، من ذا الذى غذى هذا التفكير النقدي ؟ من أين اتخذ قوته ،  
وجرأته ؟ وأخيراً من أين يأتي ؟

من أعماق الدهر ؛ من عهد اليونان القديمة ؛ من هذا العالم أو ذلك من  
علماء القرون الوسطى الملحمة ؛ من هذا المنبع القصى أو ذاك ؛ لكن من زمن  
النهضة بلا سراء . إن بين النهضة والزمن الذى ندرسه قرابة لا سرية فيها .  
نفس الرفض ، من جانب العلماء المجترئين ، رفض إلحاق البشرى بالالهى .  
نفس الثقة ، الثقة بالبشرى ، البشرى وحده ، الذى يحدد كل الحقائق ، ويحل  
كل المسائل ، أو يعد ما يعجز عن حلها كأن لم تكن ، والذى يتضمن كل  
الآمال . نفس التدخل من طبيعة ، غير معرفة كل التعريف ، ولكنها قادرة  
كل القدرة ، لم تعد من صنع الخالق ، بل هى الحمية الحيوية لكل الكائنات  
على العموم وللانسان على الخصوص . نفس الشقاق ، فان فشل وحدة  
الكنائس ، فى نهاية القرن السابع عشر ، ليس إلا تأييداً للشقاق الذى حدث  
فى القرن السادس عشر ، والذى حاول الناس إزالة صفته القاطعة بلا جدوى .  
نفس الجدل الذى لا ينتهى ، فى علم التاريخ ، وفى السحرة . هذه السنون  
الشاقة ، هذه السنون ذات الجهد والنبيل ، حيث يتأمل كل اسرى حتى أغوار  
نفسه ، حيث يعى المدعون والمدافعون أنهم يكافحون فى سبيل عقيدتهم بأكلها ،  
حيث لا يزال الارتيازيون يبدون فى صورة مهتدين جدد ، حيث لا يجهل أحد  
أن الأمر يتعلق بتفسير قاطع للحياة — هذه السنون تبدو لنا بمثابة «نهضة»  
ثانية . إلا أنها أكثر منها صرامة ومشقة ، وكأنما هى مستدركة مستفيضة :  
نهضة بدون رابليه (١) ؛ نهضة بلا بهجة .

ليس الأمر أمر تشابه مبهم ، بل هو صلة تاريخية يسهل علينا إدراكها .  
أولئك المجتهدون المتحمسون ، كتّاب المجلدات الضخمة ، أولئك القراء الكبار

(١) Rabelais : مؤلف فرنسى فى القرن السادس عشر (١٤٩٤ - ١٥٥٣) ، صاحب  
«حياة جارجانتوا وبانتاجرويل» *Gargantua et Pantagruel* . وضع أفكاره عن الانسانية  
وفلسفة الطبيعة والأخلاق الأبيقورية فى أسلوب هزلى مرح بهيج . ويتميز بروح نقدي  
عال ، وشك ، وحب حى للانسانية والعدالة ، وتقديس للعلم الحقيقى . [ المترجمان ]

الذين لم تشبع شهيتهم أبداً ، — وإن كانوا لم ينظروا بعين التقدير إلى الشعراء الذين تدين لهم النهضة بفتنتها وبسمتها — إلا أنهم درسوا الفلاسفة الذين كونوا روحها الجسور ، وعرفوها متعة وعذاب تفكير ليس له حدود . إنهم سمعوا لهم ، وأعجبوا بهم ، وتبعوهم . إن بيير بايل لوريث نسل المتحررين الذين يمدون القرن السادس عشر حتى القرن السابع عشر : إنه يجب لاست لوفاييه ، الذي تتضمن « محاوراته » ، « أموراً بالغة الجرأة فيما يخص الدين ، ووجود الله » ، وهو يذكر لاسيليو فانيني عاداً إياه الشهيد الجيد لعدم التصديق . وهو يعرف من قبل ذلك جان بودان ، وشارون ، وميشيل دي لوسبيتال ، ولعله من نافلة القول أن نقول مونتاني Montaigne : الذي لفت نظره — في لسانه الغالى القديم — إلى أن كثيراً من الناس يهملون الأمور للبحث عن العلل : وهذا مما شهدناه جيداً في مثل المذنبات . وهو يعرف ، مثلاً يعرف سواد معاصريه الكبار ، جيوردانو برونو ، الذي « كان رجلاً ذا ذهن واسع ، ولكنه أساء استعمال معارفه ، لأنه لم يقتصر على مهاجمة فلسفة أرسطو في وقت لم يكن أحد يستطيع أن يفعل ذلك دون أن يسبب مائة اضطراب ، بل هاجم أيضاً أهم حقائق الإيمان . » وهو يعرف كاردان — « واحد من أعظم الأذهان في عصره » « رجل ذو طبع فريد » — « الذي يقول إن أولئك الذين يزعمون أن الروح تموت مع الجسد ، هم بحسب مبادئهم أناس أصلح من الآخرين » ؛ وهو يعرف بوسبونازي . ومن ذا الذي لا يعرفه ؟ إنه يعرف بالينجنوس الملحد ، المؤلف الأثير لدى السيد نوديه ؛ إنه يعرف ، بصفة عامة ، كل أولئك الذين لم يشاءوا الاعتراف بقانون آخر ، إلا قانون العقل البشرى (١) .

وبالمثل ، لا يجهد ريشار سيمون أحد ممن عكفوا على دراسة الكتب المقدسة من قبله ، والذين كان هدفهم الوحيد — طبقاً لقول جيوم بوسنتيل — « إخضاع الكون بأسره لاستعمال العقل الحق . » إن احترام النصوص ، وسعرة اللغات العاملة ، وتقدم الفيلولوجيا ، وكل أنوار المعرفة التي أضاعت طريقه ، مصدرها « النهضة » . فهو يتبع مثال أساتذته البعيدين بالكلية الملكية : يقول « بين يدي وثائق دعوى رفعتها كلية اللاهوت بباريس على الأساتذة

(١) « أفكار عن المذنب » ، في أبواب مختلفة ؛ و « القاموس » .

الملكيين بالعبرية واليونانية ، بعد أربع سنوات من تأسيسها (١) . «  
لقد لاحظ الناس هذا التحالف الأكيد بينهم ، في أثناء حياتهم . إن بوسويه  
يجمع في لوم واحد بين « إرازم وسيمون ، اللذان يزجان بنفسيهما في الحكم  
بين القديس جبروم والقديس أغسطين ، بدعوى ما لهما من امتياز في الآداب  
واللغات (٢) » بينما يرى المعجبون بإيل أنه ينبغي أن يقام له تمثال بجانب  
تمثال إرازم في روتردام (٣) . إن أعداء الفلسفة يدينون في حكم واحد سبينوزا ،  
برونو ، كاردان ، والنهضة الايطالية التي بعثت أخطاء الوثنية إلى الحياة ،  
ونشرت الكفر في الدنيا (٤) ؛ ويمجد أصدقاؤها نهاية القرن الخامس عشر ،  
وبداية القرن السادس عشر ، التي انبثقت منها أشعة نور جديد (٥) .



هكذا ترتسم حركة التفكير الحديث ، كما يلي على وجه التقريب .  
تظهر ابتداء من النهضة ، حاجة إلى الاختراع ، ولع بالاكشاف ، اقتضاء  
نقدى ، تبلغ من الوضوح أننا نستطيع أن نرى فيها الصفات الغالبة في ضمير  
أوربا . ابتداء من منتصف القرن السابع عشر ، أو نحو ذلك ، نرى توقفاً  
مؤقتاً ؛ توازناً غريباً يتحقق بين عناصر متعارضة ؛ مصالحة تقع بين قوى  
متعادية ؛ وهذا النجاح ، الاعجازي بحق : الكلاسيكية . فضيلة مسكينة ؛  
قوة هادئة ؛ مثال لطمأنينة توصل إليها ، بوعى ، أناس قد عرفوا — كما عرف  
الناس قاطبة — الشهوات والشكوك ، ولكنهم يتوقون — بعد اضطراب العصر  
السالف — إلى نظام مستقر . ولا يعنى هذا فناء روح النحس : فهو باق لدى

- (١) « رسائل مختارة » ، الرسائل ٥ ، ٩ ، ٢٣ .  
(٢) « دفاع عن التقاليد والآباء القديسين » ، الفصل العشرون ، الكتاب الثالث ،  
القسم الأول : « نقد جرىء لرازم عن القديس أوغسطين ، يدعمه السيد سيمون . »  
(٣) انظر بايل ، « مراسلات » ، طبع جيجاس ، مقدمة ، ص ٩ . بيير جوريو  
« فيلسوف روتردام ، المتهم ، المذنب واقعا وقانونا » ، ١٧٠٦ ، ص ٢ .  
(٤) انظر جون افلين Evelyn ، « تاريخ الديانة » ، طبعة لندن ، ١٨٥٠ ، المقدمة .  
ص ٢٧ ، وش . كورهولت : Ch. Korholt, *De tribus impostoribus magnis liber* ،  
Kilonii, 1680, début  
(٥) ل . ب . ، « مقالان مبعوثان في رسالة من أكسفورد إلى نبيل في لندن » ، ١٦٩٥ .

الكلاسيكيين أنفسهم ، منظم ، مكبوح ، معنى بأن يصل بالروائع الأدبية إلى ذروة الكمال ، تلك الروائع التي تقتضى صبراً طويلاً لكي تكتسب الخلود . وهو باق لدى المتمردين الذين ينتظرون دورهم ، في الظلام . إنه باق لدى أولئك الذين يتعاهدون مع النظم السياسية والاجتماعية - وهم يلعنونها ؛ تلك النظم التي ينتفعون منها ، والتي يجدون فيها متعة حياتهم ، مثل سانت أفريموند وفونتنل وغيرهما ، أرسقراطيو الثورات .

لذلك ، بمجرد ما تكف الكلاسيكية عن أن تكون مجهوداً ، إرادة ، قبولاً متفكراً ، وتتحول إلى عادة وإلى إجبار ، فإن الميول الجديدة - المستعدة - تستعيد كل قوتها ونشاطها ؛ ويعود الضمير الأوروبي إلى بحثه الأزلى . حينئذ تبدأ أزمة تبلغ من السرعة والمباغته ، أنها تدهشنا : بينما هي في الواقع ليست إلا معاودة أو مواصلة ، قد سهرت على إعدادها تقاليد باقية من أجيال .

ولما كانت مكتملة ، متجبرة ، عميقة ، فإنها تعد بدورها - قبل أن ينتهي القرن السابع عشر - القرن الثامن عشر بأكمله على وجه التقريب . لقد وقعت معركة الأفكار الكبرى قبل عام ١٧١٥ ، بل حتى قبل عام ١٧٠٠ . إن جرأة حركة التفسير Aufklärung ، جرأة عصر الأنوار ، لتبدو شاحبة هزيلة ، بجانب جرأة « البحث اللاهوتي السياسي » المتهجمة ، بجانب جرأة « علم الأخلاق » المدوخة . لافولتير ، ولا فردريك الثاني وصلا إلى حملات تولاند الجنوبية ضد الأكايروس وضد الدين ؛ ولولا لوك لما كتب دالامبير « المقال الافتتاحي للانسكلوبيديا » ؛ ولم يكن العراك الفلسفي أعنف من المعارك التي رن صداها في هولاندة وانجلترا ؛ وحتى بدائية روسو لم تكن أكثر مطالبة بالاصلاح من بدائية أداريو المهمجي ، الذي قلده لاهونتان المتمرد . من هذا العهد الكثيف المشحون الذي يبدو غامضاً ، ينبع بوضوح النهران الكبيران اللذان سوف يخرقان القرن بطوله ؛ أحدهما التيار العقلي ؛ والثاني وإن كان ضعيفاً في بدايته ، ولكنه سيفيض فيما بعد على شواطئه : التيار العاطفي . ومادام الأمر في هذه الأزمة نفسها كان يتعلق بالخروج من المجالات المخصصة للمفكرين للاتجاه نحو الجمهور ، للحاق به وإقناعه ، ومادام الناس قد مسوا سبادى الحكومات بل حتى فكرة الحق نفسها ، وماداموا قد أعلنوا المساواة والحرية الفردية المنطقيتين ؛ مادموا قد نادوا بحقوق الانسان والمواطن : فلنعترف أيضاً

بأن كل الاتجاهات الذهنية ، على وجه التقريب ، التي ستؤدي جملتها إلى الثورة الفرنسية ، كانت قد اتخذت قبل نهاية حكم لويس الرابع عشر . الميثاق الاجتماعي ، تفويض السلطان ، حق المواطنين في العصيان ضد الأمير : حكايات قديمة ، نحو عام ١٧٦٠ ! فمنذ ثلاثة أرباع قرن أو أكثر ، والناس يناقشونها في وضوح النهار .

إن الكل في الكل ، كما نعلم ؛ ولا شيء جديد ، كما نعلم أيضاً ، مادامنا قد انتهينا منذ لحظة من تسجيل القرابات والأنساب . لكن إذا وصفنا بالجدة ، إعداداً بطيئاً يصل إلى هدفه أخيراً ، إتباع الميول الأبدية التي تنبثق ذات يوم — بعد أن كانت مدفونة في الأرض — محبوة بقوة ، وموشاة بنضرة ، تبدوان مجهولتين للناس ، الجهال الدائبي النسيان ؛ إذا وصفنا بالجدة طريقة معينة لعرض المسائل ، لهجة معينة ، اختلافاً معيناً ؛ عزماً معيناً على التطلع إلى المستقبل أكثر من الماضي ، على التخلص من الماضي مع الاستفادة منه في نفس الوقت ؛ وأخيراً إذا وصفنا بالجدة تدخل « الأفكار — القوات » التي تصبح من القوة والوثوق بنفسها بحيث تؤثر تأثيراً جلياً على الحياة اليومية : فان تغيراً قد وصلت عواقبه إلى عصرنا الحاضر ، كان يعتمل في السنوات التي قام فيها عباقرة مثل سبينوزا ، بايل ، لوك ، نيوتن ، بوسويه ، فيلون — مع الاقتصار على ذكر أعظمهم — بفحص كافي للضمير ، لكشف الحقائق التي تسيطر على الحياة . ولنقل مع أحد أولئك العباقرة ، مع ليبنتز ، مادين قوله عن العالم السياسي إلى العالم الأخلاقي : *Finis saeculi novam rerum faciem aperuit* (١) : في السنوات المحتتمة للقرن السابع عشر ، بدأ ترتيب جديد للأشور .

(١) مصنفات ، طبع فوشيه دي كاريل ، الجزء الثالث : *Status Europae incipiente* . حالة أوربا في مستهل القرن الجديد . *novo saeculo*



برتناد (الأب) ١٨٧ .  
 برکلی Berkeley ٦٧ ، ٦٨ ، ٢٥١ .  
 ٢٥٤ .  
 بونارد جاك ١١٦ .  
 برنييه Bernier ١٧ ، ١٠٣ ، ١٢٣ .  
 بريزونوس ٣٨ ، ٥٠ .  
 بريمار (الأب) ٣٦٤ .  
 بريموند (هانري) ٤١٨ .  
 بريتوي (بارون) Breteuil ٣٨ .  
 برينون (مادام دي) ٢٢٩ ، ٢٣٦ .  
 برنفلييه Brinvilliers ١٧٨ .  
 بريوا Briois ٥٩ .  
 بروملي (وليام) ٥٩ .  
 بروسيت (كلود) ١٧٩ .  
 بروتوس Brutus ٢٩٢ .  
 بيسكالي Pascal ٩ ، ٣٨ ، ٤٧ ، ٤٧ .  
 ٣٠٤ .  
 بلاكوير (ريشارد) ٣٥٧ .  
 بلنزاني (الرئيسة فيراند) ٣٨٠ .  
 بنتلي Bentley ٥١ ، ٦٧ ، ٢٠٥٥ .  
 بنيون (الأب) ٣١٥ .  
 بلوش (الأب أنطوان) ٤٢٠ .  
 بلين ٢٩٠ .  
 بليسون (بول) ٢٢٨ ، ٣٠٥٥ .  
 بندار Pindare ٣٤٦ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ .  
 بواريه ٩٧ ، ٤٣٣ .  
 بوب Pope ٦٧ ، ٦٨ ، ٣٤٣ .  
 (٣٥٧-٣٥٤)

ايشارد (لورانس) ٣٥ ، ٣٧ .  
 ايمار (جاك) ١٧٨ ، ١٧٩ .  
 إيرازم Érasme ٨٨ ، ٢٦٦ ، ٢٩٢ .  
 ٤٤٨ ، ٣٥٦ .

(ب)

بابون Papon ٩٧ .  
 باتس أدريان ٣٠٧ .  
 باتين جي Patin ١٢٤ .  
 بارو I. Barrow ٥٢ ، ٨٧ .  
 بالوز E. Baluze ٥٢ .  
 باناج (جاك) ٨٦ ، ٩٩ ، ١٩٢ .  
 باناج دي يوفال ٧٧ ، ٣٠٧ .  
 باسيرانو (كونت البرتودي) ١٥٠ .  
 بايل (بيير) Pierre Bayle ١٧ .  
 ٦١ ، ٧٢ ، ٧٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٥ .  
 ١٠٠ ، (١٠١-١١٨) ، ١٤٠ .  
 ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٨ .  
 (١٥٩-١٦٣) ، ١٦٩ ، ١٧٩ ، ٢٤١ .  
 ٢٥٩ ، ٢٦١ ، (٢٨٩-٢٩٢) .  
 ٣٠٠ ، ٣٠٧ ، ٣١٥ ، ٣٢٨ .  
 ٣٤٠ ، ٣٧٩ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ .  
 ٤٥٠ .  
 بترون Pétrone ٣٥٦ .  
 بتلر (جوزيف) ٢٥٥ .  
 براون (توماس) ٦٤ ، ٨٧ .  
 برايور Prior ٦٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣ .

- بوكوك ٢٢ .  
 بوفندورف Pufendorf ١٧٤ ، ٥١ ،  
 (٢٧٧-٢٧٥) ٣١٩ ، ٢٨١ ،  
 . ٣٩٢  
 بول (القديس) ٢١١ .  
 بوالو Boileau ١٨٠ ، ١٤٢ ، ١١ ،  
 (٣٥٣-٣٥١) ٣٥٩ ، ٣٥٦ ،  
 (٣٧٤-٣٧٣) ٣٨٥ ، ٣٨٢ ،  
 . ٤٠٨ ، ٣٩٠ .  
 بوسويه Bossuet ١١ ، ٢١ ، ٤٤ ،  
 ٤٨ ، ٦١ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٨ ،  
 ٩١ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٤١ ،  
 (٢١٨-٢٠٠) (٢٢٨-٢٢٧) ،  
 (٢٣٦-٢٢٩) ٢٧٨ ، ٢٦٩ ،  
 ٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ،  
 ٣٧٨ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٣ ،  
 . ٤٥٠ .  
 بوترو Boutroux ٢٢٣ .  
 بونالد (فيكونت) ٢٥٩ .  
 بورنيون (أنطوانيت) ٤٣٥ .  
 بواييه أبل Boyer ٧١ ، ٦٨ ، ٣٥ ،  
 بوفيه Bouvet ٣٦٧ .  
 بطرس الأكبر (قيصر) ٧٩ ، ١٤ .  
 بطلميوس فيلا دلفوس ، ذلك مصر ٤٦ .  
 بوشار (سامويل) ١٨٣ .  
 بوهم Boehme ٤٢٦ .  
 بويرهاف (هرمان) ٣٢٠ ، ٣١٤ ،  
 بوانبورج (بارون) ٢٢٤ .
- بواجلبرت (بيير) ٢٨٦ .  
 بوسبونازي (بيترو) ١٢٢ .  
 بوفيه Buffier ٣٥ .  
 بوكانان ٦٦ .  
 بولانفلييه Boulainvillers ٢٣٠ .  
 بوهور (الأب) ٦١ ، ٣٥١ .  
 بونيان (جون) ٦٦ .  
 بويل (روبرت) ٢٦١ ، ٣١٤ ،  
 . ٣١٦ .  
 بيكون (فرنسيس) F. Bacon ٦٦ ،  
 ٢٤٣ ، ٢٦٦ ، ٣١٢ ، ٤١٥ .  
 بيرو Perrault ٣٨٢ ، ٣٦٢ .  
 بيرون Pyrrhon ٢٤١ ، ٢٣٨ .  
 بيزرون (الأب) ٤٦ ، ٤٧ ، ٢١٣ .  
 بيش (أدوارد) ٣٥١ .  
 بيكر (بالتازار) ١٤٧ ، ١٥١ ،  
 ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٧ .  
 بينوا Benoist ١٦٢ ، ٨٦ .  
 بيانكيني (فرانسيسكو) ٥١ .  
 بيرنت (جلبرت) Burnet ٣٥ ،  
 ٣٦ ، ٥٩ ، ٨٧ ، ٩٩ .  
 بيل (روجي دي) ٤٠٨ .
- (ت)
- تان Taine ٢٥٣ .  
 تاسيت ١٦٣ ، ٤١٥ .  
 تاشارد (الأب) ٣١٦ .

(ج)

- تافرنيه (جان باتست) ١٧ .  
 ترٲوليان ١٩١ .  
 تسامح (عقد التسامح) ٣٠٧ ،  
 . ٣٠٨  
 تمبل (وليام) W. Temple ١٦ ،  
 . ٢٩٣ ، ٢٦٦ ، ١٢٢  
 تندال (ساتيو) ١٥٠ .  
 تولاند (جون) J. Toland ٧٢ ، ٦٦ ،  
 (١٥٤-١٥٠) ١٧٣ ، ١٦٢ ،  
 ٢٥٢ ، (٢٦٨-٢٦٦) ٣٧٨ ،  
 . ٤٤٩  
 توماس (القديس) St. Thomas ٢٧ .  
 توماس الأكويني (القديس) .  
 St. Thomas d'Aquin ٤١٥ .  
 توماسيوس (كرستيان) Thomasius  
 ٦٢ ، ١٧٢ ، (١٧٨-١٧٥) ٢٥١ ،  
 (٢٨٨-٢٨٧) .  
 تورمين (الأب) ٤٦ .  
 تيراسون (الأب) ٢٢ .  
 تيوكريت ٣٤١ .  
 تيودور ٢٩٠ .  
 تييريز دافيلا (القديسة) ٤٣٢ .  
 تيفينو (جان) ٣١٦ .  
 تيلوتسون Tillotson ٦٦ ، ١١٥ ،  
 . ٢٦٦  
 تيت ليف Tite-Live ٤٠ ، ٣٦ ،  
 . ٥٥  
 تيسو دي باتو ٣٢ .
- جارت (صاسويل) ٣٧٣ .  
 جارسيلازو دي لافيجا ٢٩٣ .  
 جاروفالو ١٩٩ .  
 جالاند (أنطون) ٢٢ ، ٣٦٦ ،  
 جاي Gav ٦٧ .  
 جايل (توماس) Gale ٥٢ .  
 جراسيان (بالتازار) ١٧٦ ، (٣٢٦-  
 ٣٢٨) .  
 جرافيساندي ٣١٤ .  
 جرافينا (جان) (٢٨٨-٢٨٧)  
 ٣٥١ ، ٣٥٧ ، ٣٨٥ .  
 جراسونت (كونت) ٣٧٢ .  
 جروسيوس (هوج دي جرووت)  
 Grotius ٨٨ ، ١٨٥ ، (٢١١-٢٦٦)  
 (٢٧٥-٢٧٣) ٢٧٨ ، ٢٧٩ ،  
 ٢٨٠ ، ٢٨٨ .  
 جرونوفوس ٤٢ .  
 جريجوري (القديس) ٨٣ .  
 جريمهوسن (كرستوف) ٣٩٤ .  
 جلانفيل (جوزيف) ١٧١ .  
 جوته Goethe ٣٥٨ .  
 جوس (أدموند) ٦٧ .  
 جوريك (أوتوفون) ٣١٥ .  
 جيتشل (جوهان) ٤٣٤ .  
 جيملي كاري (ج) ، فراليسكو) ١٦ .  
 جوالتييري (الأب) ٣١٤ .

- جويون Guyon ، مادام جان بوفيه (٤٢٩-٤٣٢) .
- جاك الثاني (ملك إنجلترا) ١٦٥٠ ، ١٧٠٠ ، ١٢٧ ، ٢٨٠ .
- جاكوا Jaquelot ١١٦ ، ١١٥ ، ٨٦ ، ١١٦ ، ١١٥ ، ٢٢٥ .
- جان فردريك ، دوق هانوفر ٢٢٥ .
- جورج لويس ، منتخب هانوفر ، أصبح جورج الأول ٢٣٦ .
- جوريو Jurieu ٩٥ ، ٩٠ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٩٥ ، ٩٠ ، ١٤٩ ، ١١٥ ، ٩٧ ، ١٠٦ ، ١١٥ ، ١٤٩ ، ٢١٠ ، (٢٧٨-٢٨٠) ٣٠٧ ، ٣٧٨ .
- جوستان (القديس) St. Justin ١٦٣ .
- جوفينال Juvénal ٣٨٢ .
- جيروم (القديس) St. Jérôme ١٦٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٤ .
- (د)
- داسيه (أندريه) ٣٥٧ .
- داسيه (مادام) Mme Dacier ٣٣٤ .
- داسبير (وليام) ١٦ .
- دانتى Dante ٣٩٨ .
- دانييل (الأب) ٣٥ .
- درايدن Dryden ٢٥٧ ، ٦٧ ، ٢٥٨ .
- دنييس (جون) ٣٥١ .
- دنييس داليكارناس ٣٥٦ .
- دودويل (هنري) ٨٧ ، ٤٣ ، ٣٨٢ .
- دوريا (باولو ساتيا) ٣٨٢ .
- دي بان Du Pin ٢٠٨ .
- ديبو (الأب) Dubos ١٧٩ ، ١٤٩ ، (٤٠٧-٤١٢) .
- دياجوراس ٢٩٠ .
- ديدرو Diderot ١٤١ .
- ديراس (مادام) ٨١ .
- ديفرنيه (جوزيف جينشارد) ٣١٥ .
- ديكارت Descartes ٩٧ ، ٦١ ، ١٠١ ، ١٢٣ ، (١٣٣-١٣٦) ، ١٧٢ ، (٢١٦-٢١٧) ٢٣٢ ، ٢٦٦ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٨ ، ٣٦١ ، ٣٩٨ ، (٤١٢-٤١٥) ، ٤٣٦ .
- ديلافالي (بيترو) ١٧ .
- ديهينو Dehénault ١٢٤ .
- ديهولبير (مادام) ١٢٦ .
- دييزم ، مذهب Déisme (٢٥٤-٢٥٤) ، ٢٦٨ .
- (ر)
- رابين (الأب) ٣٥١ ، ٦١ ، ٣٥٧ .



سينكا Sénèque ٩ ، ١٦٠ ، ٢٦٦ .  
 سيمون (ريشار) R. Simon ٨٧ ،  
 ٩١ ، ٩٨ ، (١٨٢-٢٠٠) ،  
 ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢١٨ ، ٢٣٧ ،  
 ٢٥٦ ، ٣١٩ ، ٤٤٧ .

(ش)

شاتوبرياند ٤٢ .  
 شاردين (جان) ١٨ ، ٢٤ .  
 شارل الثاني ، ملك إنجلترا ٧٦ .  
 شارل الحادي عشر ، ملك السويد  
 ٢٧٦ .  
 شارل الثاني عشر ، ملك السويد ٧٨ .  
 شارلسكان Charles-Quint ٣٦ .  
 شرلوك (توماس) ١١٦ ، ٢٦١ .  
 شفتسبري Shaftesbury ٦٧ ، ٧٢ ،  
 ٧٧ ، ٧٩ ، ١٥٠ ، ٢٤٢ ،  
 ٢٤٣ ، ٢٦٠ ، (٢٩٩-٣٠٥) ،  
 ٣١٩ .  
 شكسبير Shakespeare ٥٨ ، ٣٥٠ ،  
 ٣٥٨ .  
 شهر زاد ٣٦٦ ، ٣٦٨ .  
 شوشزر ١٣٥ .  
 شوليه (الأب دي) ١٣٨ .  
 شيشرون Cicéron ٧٠ ، ٢٦٦ ،  
 ٢٩٢ .

ستاندال Stendhal ٣٢٦ .  
 سترابون ١٧ ، ٢٠ .  
 ستراتون ٢٩ .  
 ستنس (نيلز) ٣١٥ .  
 ستوش ١٥٠ .  
 ستيل (ريشارد) Steele ٦٤ ،  
 ٦٧ ، ٦٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٥٣ ،  
 ٣٨٤ ، ٣٨٥ .  
 سرفانتس Cervantès ١٠ ، ٥٩ .  
 سقراط ٢٦٦ .  
 سكارلاتي ٣٨٨ .  
 سكاليجر (جوزيف) ٢٦٦ .  
 سليمان ٢٦٦ .  
 سواسردام ٣٨٤ .  
 سوبيسكي (جان الثالث ، ملك  
 بولونيا) ٧٨ .  
 سوران (إيلي) ٣٠٧ .  
 السوسنيانيون Sociniens ٩٦ ، ٩٧ ،  
 ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٩٦ .  
 سوفت (جوناتان) Swift ٣٢ ،  
 ٦٧ ، ٦٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٦٧ ،  
 ٣٤٠ ، ٣٥٣ ، ٣٩٠ .  
 سوفوكليس ٣٩٢ .  
 سوفير (جوزيف) ٣١١ .  
 سوليس (أنطونيو) ٣٥ .  
 سويتون Suétone ١٦٣ .  
 سير (كولي) ٣٨٢ .  
 سيمنتو (أكاديميه) ٣١٤ .

(ح)

فائيني ٢٩١ .  
فرانسوا الأول ٣٦ ، ٣٧ .  
فرانك (أوجست هربان) ٤٢٦ .  
فرانكلين (بنيامين) ٨٤ .

صوفي شارلوت ١٥٢ .

(ع)

فرجيل Virgile ١٦٣ ، ٣٥٧ ، ٣٩٦ .  
فردريك الأول ، ملك بروسيا ٧٩ .  
فردريك الثاني ، ملك بروسيا ٤٤٩ .  
فردريك الثالث ، منتخب براندنبورج

عزير Esdras ٢٠٥ .

(غ)

٧٨ ، ٨٧ ، ١٧٧ ، ٤٢٦ .  
فرييك (كرستيان) ٣٥١ .  
فريول (مسيو دي) ٣٦٧ .  
فلمر (روبرت) Filmer ٢٨٠ ، ٢٨١ .  
فلوطرخس ٣٦ ، ٢٦٦ .

غسندي Gassendi ١٠٩ ، ١٢٣ ،

٢٤٣ ، ٢٦٦ ، ٤١٥ .

فليري (الأب) ٦١ ، ١٨٤ ، ٢٠٤ ،  
٢١٠ .

(ف)

فليري (كاردينال دي) ٣٤٤ .  
فتسان دي بول (القديس) ٢٠٣ .

فاركار (جورج) ٦٤ ، ٦٦ .

فارون ٢٦٦ .

فنيلون Fénelon ١١ ، ٩٠ ، ١٤٩ ،  
٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٧ ، (٢٨٤ -

فاريللاس Varillas ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ،

٤٠ .

٢٨٧) ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٧٨ ،  
٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، (٤٣٠ -

فالسنييري (أنطونيو) ٣١٤ .

فالون Vallemont ١٧٩ .

(٤٣٣) ٤٥٠ .

فالتكور (جان باتست) ٣٤٤ .

فونتنسل Fontenelle ٥٤ ، ١٣٤ ،  
١٣٧ ، ١٥١ ، (١٧٠-١٦٤)

فان برون (كورنيليوس) Van Brūyn

٧٩ ، ٣٦٧ .

٢٣٦ ، ٢٤١ ، (٣٠٩-٣١٢)  
٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ،

فانبروج (جون) ٦٦ ، ٣٥٣ .

فان دير جوس ٦٤

٣٢٨ ، ٣٤٠ ، ٣٧٨ ، ٣٨٢ ،  
٤٠١ ، ٤٤٩ .

فان ديل Van Dale ١٥١ ، ١٦٤ ،

١٦٥ ، ١٧٩ .

- كامبانيايلا (توماس) ١٥ .  
 كامبرلاند Cumberland ٢٧٧ .  
 كانتز Canitz ٣٤٧ .  
 كرسثينا (ملكة السويد) ١٤ .  
 كرليوس ٢١١ .  
 كريبيلون Crébillon ٣٥٨ .  
 كرومويل ٦١ ، ٧٦ .  
 كريسميني ٣٥١ ، ٣٨٥ .  
 كلارك (صاموئيل) S. Clarke ٦٦ ،  
 ٧١ ، ٧٢ ، ٢٥٥ ، ٢٦٥ ، ٣٦٩ .  
 كلاريس (باولو بارتولوميو) ٣١٤ .  
 كلود Claude ٨١ ، ٨٢ ، ٨٥ .  
 كذت كورس Quinte Curce ٥٥ .  
 كنتيليان Quintilien ٣٥٦ .  
 كنج (وليام) ١١٣ ، ١١٥ .  
 كنوتسن ١٥٠ .  
 كوبر (جلبرت) ٣٠٧ .  
 كوبرنيكوس ٣٠٩ .  
 كورتلز (جاسيان دي) ٣٧١ .  
 كورديموا ٣٥ .  
 كورنليوس نيبوس ٥٥ .  
 كورنيل (بيير) Corneille ٦١ ،  
 ٦٤ ، ١٦٤ ، ٣٤١ ، ٣٥٩ .  
 ٣٨٧ ، ٣٩٢ .  
 كوست (بيير) P. Coste (٧٣-٧٢)  
 ٧٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٣١٦ ،  
 ٣٣٤ ، ٤٠٤ .  
 كولبير Colbert ١٥ ، ٢٨٥ .
- فو (دانيال دي) Foe ٥٧ .  
 فورتنس (الأب ألبرتو) ٣١٤ .  
 فورستي (الأب أنطونيو) ٥٠ .  
 فوكيه ٢٣٢ .  
 فوسسيوس Vossius ١٣٠ ، ١٦٤ ،  
 ١٩٢ .  
 فولتير Voltaire ١١ ، ٣٢ ، ١٣١ ،  
 ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٣١٥ ، ٣٣٦ ،  
 ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٤٥٠ .  
 فيدا (ماركو جيرولامو) ٣٥٦ .  
 فيتاغورس ٣١ .  
 فير (نيكولا دي) ٥٦ .  
 فيراند (الرئيسة) ٣٨٠ .  
 فيرتو Vertot ٣٥ ، ٣٦ .  
 فيكو (جان باتستا) Vico ٧٨ ، ٣١٦ ،  
 (٤١٥-٤١٧) .  
 فيليبس (جون) ٣٧٤ .  
 فليكا (فنستزو) ٣٤٨ .
- (ك)
- كابليل (لويس) ١٨٣ .  
 كاتون (لي سالسير) ٢٦٦ ، ٢٩٢ ،  
 ٣٥٩ .  
 كادورث Cudworth ٦٧ ، ٢٦٦ .  
 كاربزو Carpzow ١٧٤ .  
 كاردوتشي ٣٥٠ .  
 كافارو (الأب) ٢١٨ .

لانجيين (جيران) ٣٥١ .  
 لانسيزي (جيوفاني ساريا) ٣١٤ .  
 لاهونتان (بارون) ١٩ ، ٢٦٠ .  
 ٤٧٠ .  
 لانجليه ديفرنوا ٣٨ .  
 لنكلو (نينون دي) ١٢٦ .  
 لوثر Luther ٨٢ ، ٩٢ ، ١٧٧ .  
 لوسپيتال (سپيشيل دي) ٢٩٠ .  
 لوك Locke ١٤ ، ٦٦ ، ٧٠ .  
 ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٩٢ ، ١٢٣ ،  
 ١٣٣ ، ١٥١ (٢٤١-٢٥٣) ، ٢٦٤ ،  
 ٢٦٦ (٢٨١-٢٨٣) ، ٢٨٨ ،  
 ٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٨ ، ٣١٩ ،  
 ٣٢٠ ، ٣٣٤ ، ٣٦٩ ، (٤٠٣-  
 ٤٠٧) ، ٤١٥ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ .  
 لوكريش Lucrèce ١٢٤ .  
 لولي ٣٨٦ .  
 لونجان Longin ٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٩٧ .  
 لونو (جان دي) ١٨٤ .  
 لوهنستين (كاسبرزفون) ٣٩٣ .  
 لويز هولاندين ٢٢٩ .  
 لويس (دوق دي بورجوني) ٢٨٦ .  
 لويس الثالث عشر ٢٧٣ .  
 لويس الرابع عشر Louis XIV  
 ١١ ، ١٥ ، ٢١ ، ٢٥٠ ، ٣٦ ،  
 ٦٠ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ٧٧ ،  
 (٨٣-٨٦) ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ،  
 ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١٤١ ، ١٨٠ .

كولنز (أنطوني) A. Collins ٧٢ ،  
 ٧٧ ، ١٥٠ ، (٢٦٥-٢٦٧) ،  
 ٣٧٨ .  
 كوتتي (أنطونيو) ١٣ .  
 كونجريف (وليام) ٦٦ ، ٣٥٣ .  
 كوندياك ٢٥٣ ، ٤٠٥ .  
 كونفوشيوس (٢٧-٣٠) ٣٣٦ .  
 كوهلمان (كرينوس) ٤٣٦ .  
 كينو Quinault ٣٨٦ .

(ل)

لابرويير La Bruyère ١٨ ، ٧٢ ، ٧٣ ،  
 ١٦٤ ، ٢٧٠ ، ٢٨٥ ، ٣٣٠ ،  
 ٣٧٧ ، ٣٨٥ .  
 لاروك (الأب) ١٨٦ .  
 لاشيز (الأب) ٢٠٤ ، ٣٦٤ .  
 لافار (ماركيز دي) ١٣١ .  
 لافونتين La Fontaine ٦١ ، ٧٢ ،  
 ٣٤١ ، ٣٩٨ .  
 لاکوب (الأب) ٤٥٠ .  
 لاما (برناردو) ١٣٧ .  
 لاسير (سادام دي) ٣٣٥ .  
 لاست لي فاييه La Mothe ٢٨ ، ١٠٨ ،  
 ١٢٤ .  
 لاست (هوداردي) ٥٧ ، ٣٤٤ ،  
 ٣٤٥ .  
 لامي (الأب) ٨٨ ، ١٤٩ .

- ليد (جان) ٤٣٤ .
- ليساج Lesage ٦١ (٣٧١-٣٧٠) .
- ليسنج Lessing ٣٥٨ .
- ليفى (روفائيل) ١٩٩ .
- ليكوين (الأب) ٢١٣ .
- ليرى (نيكولا) ٣١٥ .
- ليون (هوج دى) ٢١٢ .
- ليوفنهوك (أنطون) ١٤ ، ٣١٤ .
- لى (ناتانيل) ٣٥٨ .
- (م)
- محمد ٢٢ ، ٢٣ ، ١٥٢ ، ٢١٠ .
- مايبيسون (دون جام) ١٨٤ ، ٥٢ .
- ماجالوفى (لورنزو) ٣٩٨ .
- مارانا (جيوفانى باولو) ٢٤ ، ٢١ .
- مارسيلو (بنيدتو) ٣٨٧ .
- ماركيوس (جوهانس) ١٦٤ .
- مارى دى جيزو ٢١٧ .
- مارى تريزا التسوية ٢١٤ .
- ماريون (إيلي) (٤٢٣-٤٢٤) .
- ماريوت ٣١٥ .
- ماريفو Marivaux ٣٤ .
- مارسجلى (كونت دى) ٣١٤ .
- مارشام (جون) ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ .
- ٢١٢ ، ٢٦٦ .
- مازىل (أبراهام) ٤٢٣ .
- مازىل (دافيد) ٢٥١ .
- ٢٠٤ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢٣٦ .
- ٢٣٧ ، ٢٦٥ ، (٢٧١-٢٦٩) .
- ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٣٠٥ .
- ٣٦١ ، ٣٦٤ ، ٣٧٨ ، ٣٩٥ .
- ٤٠٨ ، ٤٥٠ .
- لوبران (شارل) Le brun ٤٠٨ .
- لوبلان (الأب) ٣١٦ .
- لوبوسنى (الأب) ٣٥٧ ، ٣٥١ .
- لوتيه (ميشيل) ٢٠٧ ، ٢٠٥ .
- لوجويان (الأب) ٢٩ ، ٢٨ .
- لوديه ٢٠٢ .
- لوفاسور (ميشيل) ٢٥٧ ، ٢٥٦ .
- لوكونت (الأب) ٢٨ ، ١٨ .
- لوموان (الأب) ٣٦ .
- لوكلير (جان) ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٨ .
- ١٨٩ ، ١٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٥ ، ١٢٩ .
- ١٤٧ ، ١٩٨ ، ٢١٢ ، ٢٥٠ .
- ٣٠٠ ، ٣٤٥ ، ٣٧٨ .
- لوفوتر ٣٤٣ .
- ليبنيز Leibniz ١٣ ، ٤٥ ، ٥١ .
- ٧٢ ، ٩٢ ، ١٣٣ ، ١٤٩ ، ١٥٢ .
- (٢٣٨-٢١٩) ، ٣٠٥ ، ٣١٦ .
- ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٤٠ ، ٣٦٨ .
- ٣٩٢ ، (٤١٥-٤١٢) ، ٤٣٧ .
- ٤٤٠ ، ٤٥٠ .
- ليتى (جريجوريو) ١٣ ، ٦١ .
- ٧٢ .
- ليجييه (الأب) ٣٣٦ .

- موریری ١٠٨ ، ٨٨  
 • مولانوس (فالتر . . .) ٢٢٥ ،  
 • ٢٣٠  
 • مولییر Molière ١١ ، ٦١ ، ٦٤ ،  
 ٣٧٧ ، ٣٤١ ، ٣١١  
 • مولینوس ٤٣١  
 • مولینیہ Molyneux ١٥٢  
 • مونبران (مارکیز دی) ٣٧٢  
 • مونٹسکیو Montesquieu ١١ ، ٢٥  
 • مونٹانی Montaigne ٧٢ ، ٧٣ ، ٢٦٦ ،  
 • ٤٤٧ ، ٣٣  
 • مونٹوبان ٣٦٦  
 • مونفوگون (برناردی) ٥٢ ، ٥٩  
 • میبوم (هنری) ٥٢  
 • میبج جی Guy Miège ٦١  
 • میزو (بیر دی) Maizeaux ٧٢ ، ١٢٧ ،  
 • ٣٠٠  
 • میسون (ماکسمیلیان) ٥٩  
 • میشیل أنجلو ١٦٣  
 • میشیللی (بیر أنطونیو) ٣١٤  
 • مینوسیوس فلیکس ٢٦٦

(ن)

- نوایل (الأب) ٢٣٦  
 • نودت (جیرارد) ٣٠٧  
 • نیکاتور ٢٩٠  
 • نیکول Nicole ٨٧ ، ١١٥

- ماسیون Massillon ٦١  
 • ماکیانیلی ١٤٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤  
 • مافیٹی (سبیونی) ٣٥٨ ، ٣٨٥  
 • مالبورو ٣٥٧  
 • مالبرانن Malebranche ٣٩ ، ١٠٩  
 • ١٥٤ ، ١٤٨ (١٤١-١٣٦)  
 • ٣٦٨ ، ٢٤٥ (٢١٦-٢١٤)  
 • ٤١٥  
 • ماسبورج (الأب) ٣٥ ، ٣٦ ، ٨٣ ،  
 • ١٠٤ ، ٨٨  
 • ماندفیل (برناردی) ٢٩٥ -  
 • (٢٩٧)  
 • مانسینی هورتانس، (دوقه دی مازارین)  
 • ١٢٧  
 • مزریه ٣٥  
 • مکتاناب (صحتہ نکتانیو فرعون  
 • مصر) ٤٦  
 • ملتون Milton ٦٦ ، ٢٦٦ ، ٣٧٤  
 • مالک سیام ٢٥  
 • ممتی (امبراطور الصين) ٢٧  
 • منتنون (مادام دی) Maintenon ٢٣٥ ،  
 • ٣٦١  
 • منکین ٤٠  
 • مورا (بیات دی) ٤٠٢  
 • موراتوری (أنطونیو) ٥٢ ، ٦٢ ،  
 • ٣٨٥ ، ٣٥١  
 • مورجان (لی جالوا) ٣٦٦  
 • مورهوویوس ٣٩٣

هويه (جيباديون) Huet ٣٠٧ .  
هويه (أسقف أفرانش) ٤٨  
٢٠٧ .

هويسو d'Huisseau ٣٠٧ ، ٩٨ ، ٩٧ .

هيبون ٢٩٦ .

هيجنز (كرستيان) ٣٨٤ .

هيربيلو ٢٢ ، ٢٣ .

هيرودوت ٢ .

هيل (آرون) ٣٦٤ .

(و)

واربرتون (وليام) ٢٥٥ .

والبول (هوراس) Walpole ٥٩ .

وايز (كرستيان) ٣٩٣ ، ٣٩٤ .

ولستند (ليونارد) ٣٥١ .

وليام أورانج Guillaume d'Orange

٣٦ ، ٦٥ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٢ ،

٩٥ ، ١٢٦ ، ٢٣٦ ، ٤٢ ، ٢٨٠ ،

(٣٠٨-٣٠٧) ٣٩٥ .

ويزوواتي Wiszowaty ٩٧ .

وود روجرز ١٦ .

ويكر لي (وليام) ٦٦ .

نيوتون Newton ٧٢ ، ٦٦ ، ٤٥

(٣١٦-٣١٩) ٤٥٠ ، ٣٦٩ .

نيوفنتجت Niewentijt ٤٢٠ .

(ه)

هاليفاكس (ماركينز) ٣٢٥ ، ٢٩٣

هاميلتون ٣٧٢ .

هانبل (جورج فردريك) ٣٨٦ .

هانريت الانجليزية ١٤١ .

هانسيوس (دانيل) ١٣٠ .

هانوفر (دوقه دي) ٢٢٩ .

هايد (كونت كلارندن) ٣٥ .

هربرت (بارون دي شربري) ١٤٤

٢٥٤ ، ٢٦٦ .

هلسسيوس Helvétius ٤٠٥ .

هوبز Hobbes ١٤٤ ، ١٥١ ، ٢٦٦ ،

(٢٧٠-٢٧١) ٢٨١ .

هوتنشستر Hochstetter ٧٠ .

هوراس ٣٥٦ ، ٣٥١ ، ٣٤٩ ، ١٢٤

٣٥٧ ، ٣٨٢ ، ٣٩١ .

هوكنكور (ماريشال) ٣٢٨

هوسيروس ٣٩٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٦ ، ٣٤٣

## اصطلاحات

Mysticisme	تصوف	(أ)	
Théosophie	تيوصوفية		
		Harmonie préétablie	الاتساق المقدر
		Sceptiques	الارتيازيون
	(ج)	Esthétique	استطيقا
Le sublime	الجليل الجبال	Déduction	استنباط
Substance	الجوهر	Mécanisme	آلية
Monade	الجوهر الفرد	Etendue	امتداد
		Le moi	الانية
		Les lumières	أنوار المعرفة
	(ح)	À priori	أوليا
Intuition	حدس		
Sensibilité	الحساسية	(ب)	
	حساب النهايات الصغرى	Évidence	بداهة
Calcul infinitésimal		Pédagogie	بيداجوجيا
Panthéistes	الحلوليون		
Les bêtes-machines	الحيوانات - آلات	(ت)	
	(خ)	Illuminisme	التجلى
		Empirisme	التجريبية
Piétisme	الخشوعية	Analyse	تحليل

	(ف)	(د)	
Le Vide	الفراغ	دييزم (الاعتراف بالله وإنكار	
L'Espace	الفضاء	Déisme	(الوحي)
Pensée	فكر		
Idée	فكرة	(ر)	
Pragmatisme	فلسفة الذرائع	Quiétisme	الركونية
Philologie	فيلولوجيا	Stoiciens	الرواقيون
	(ق)	(س)	
Inquiétude	قلق	Sociniens	السوسنيانيون
Substratum	القوام		
Syllogisme	قياس	(ص)	
	(ك)	(ع)	
La majeure	كبرى القياس	La mineure	صغرى القياس
Quakers	الكويكرز	Le devenir	الصيرورة
	(ل)	(غ)	
Infini	لامتناه	Rationaux	العقليون
Illogisme	لا منطوية	La cause	العلة
		La cause finale	العلة الغائية
		Les causes efficientes	العلل الفعالة
	(م)	(غ)	
Essence	ماهية	La glande pinéale	الغدة الصنوبرية

Lumière naturelle

النور الفطري

Cosmopolite

مختلط

Antitrinitaires

مخالفو التشليث

L'Absolu

المطلق

Les illuminés

الملهمون

Révélation

وحي

Méthode

منهج

Clarté

وضوح

Les initiés

الموقفون

(و)

(ى)

Certitude

يقين

Le relatif

النسبي

(ن)